IAQD2023

العقيدة لغير التخصص 2

المحتويات

الدرس الأول : تعريف العبادة وحقيقتها
الدرس الثاني : أهمية العبادة
الدرس الثالث : ثمرات العبادة.
الدرس الرابع : أركان العبادة
الدرس الخامس: شروط صحة العبادة
الدرس السادس: تفاضل العبادات
الدرس السابع: العبادة قائمة على اليسر
الدرس الثامن: مكفرات الذنوب.
الدرس التاسع: مراتب العبودية
الدرس العاشر: أسباب تعظيم الأجر والسيئات
الدرس الحادي عشر: جزاء الحسنات والسيئات في الآخرة
الدرس الثاني عشر: حبوط الأعمال المفهوم والأقسام والأدلة.
الدرس الثالث عشر: آثار السيئات والحسنات

الدرس الأول: تعريف العبادة وحقيقتها

عناصر الدرس

العنصر الأول: تعريف العبادة.

العنصر الثاني: استعمالات لفظ "عبد" في القرآن الكريم.

العنصر الثالث: أنواع العبودية

العنصر الرابع: حقيقة العبادة ومفهومها في الإسلام.

العنصر الأول: تعريف العبادة

ا – العبادة في اللغة:

معنى العبادة في اللغة:

العبادة في اللغة: مصدر عَبْدَ

في القاموس: العبدية والعبودية والعبادة: الطاعة.

وفي الصحاح: أصل العبودية الخضوع والذل، والتعبيد: التذليل.

يقال: طريق معبد، والبعير المعبد: المنهوء بالقطران المذلل.

والعبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك، تفرق بين المعاني بحسب الاشتقاق.

﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ [البقرة:207] أي في حزبي، فأضـــاف معنى جديداً وهو الولاء.

وفي المخصص:

أصل العبادة: التذليل، من قوله طريق معبد أي بكثرة الوطء عليه. ومنه أخذ (العبد) لذله لمولاه.

والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب في المعاني.

يقال: تعبد فلان لفلان – إذا تذلل له، وكل خضوع ليس فوقه خضوع. فهو عبادة طاعة كان للمعبود أو غير طاعة، وكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل فهي عبادة، والعبادة نوع من الخ ضوع، لا يـ ستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم، كالحياة والفهم والسمع والبصر.

وفي اللـ سان: أ صل العبودية: الخ ضوع والتذلل، وفي حديث أبي هريرة «لا يقل أحدكم لمملوكه: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي» هذا على نفي الاســـتكبار عليهم وأن ينسب عبوديتهم إليه، فإن المستحق ذلك الله تعالى رب العباد كلهم والعبيد.

وجعل بعضهم العبادة لله، بخلاف العبدية وغيرها فهي تجعل لله وللمخلوقين.

قال الأزهري: ولا يقال: عبد يعبد عبادة، إلا لمن يعبد الله، ومن عبد إلها دونه فهو من الخاسرين، قال وأما عبد خدم مولاه، فلا يقال: عبده. قال الليث: ويقال للمشركين: هم عبدة الطاغوت.

ويقال للمسلمين: عباد الله، يعبدون الله، والعابد، الموحد.

قال في اللسان: والتعبد: التنسك، والعبادة: الطاعة.

قال، والتعبد: التذلل، والتعبيد: التذليل.

بعير معبد مذلل، وطريق معبد: مسلوك مذلل.

قال ابن منظور:

العبد: الإنسان، حرًّا كان أو رقيقًا يُذهب ذلك إلى أنه مربوب لباريه عز وجلَّ. يقال فلان عبد بيِّن العبودية.

وأ صل العبودية: الخ ضوع والتذلل، والتعبد: التن ُّسك، والعبادة الطاعة، قال ابن الأنباري: فلان عابد: هو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره".

وقال الفيروز أبادي: "والعبادة الطاعة" ، وعلى هذا فتعريف العبادة في لغة العرب: الذلُّ والخضوع المستلزِم طاعة المعبود أمرًا ونهيًا، ولذا سُمِّي الرقيق «عبدًا» يذل ويخضع لسيده أمرًا ونهيًا فيما يختص بشئون الحياة.

ب-العبادة في الشرع:

لقد اختلفت عبارات العلماء – رحمهم الله تعالى – في تعريف العبادة شرعًا إلا أن المعنى متحد، وإنما الفرق بينها في الشمول، وسنعرض بعضًا منها:

1- قال القرطبي – رحمه الله –: " والعبادة عبارة عن توحيده والتزام شـــرائع دينه، وأصل العبادة الخضوع والتذلل " .

2- قال ابن كثير رحمه الله: العبادة في الشرع: عبارة عمّا يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف" . فعرَّف العبادة بأنها «كمال المحبة لله مع كمال الخضوع لله مع كمال الخوف من الله» فمن اتصف بذلك فإنه يطلق عليه عابد لله – عز وجل –.

3- وقال ابن تيمية: "العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة" .

وعلى هذا يتضح أنَّ للعبادة تعريفين.

أحدهما: باعتبار العابد، وهو كمال الذُل مع كمال الحب لله عز وجل.

والآخر: باعتبار المتعبَّد به، وهو ما يحبه الله ويرضـــاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، لكونه –عزَّ وجلَّ –شرعه وعُمل وفق مراده.

ومن ذلك: "الصلاة، والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصـــلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حبُّ الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكُّل عليه والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله".

العنصر الثاني: استعمالات لفظ "عبد" في القرآن الكريم.

لفظ (عبد) ومشتقاته تواتر بكثرة في القرآن، وبلغ مجموع تواتره أربعاً وسبعين ومائتين موضع، جاء في اثنين وخمسين ومائة موضع بصيغة الاسم، من ذلك قوله تعالى: ﴿والله رءوف بالعباد﴾ [البقرة:207]. وجاء في اثنين وعشرين ومائة موضع بصيغة الفعل، من ذلك قوله سبحانه: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ [البقرة:21].

ولفظ (عبد) ومشتقاته جاء في القرآن على عدة معان، نذكر منها ما يأتي:

أولاً: بمعنى المؤمنين والكافرين، من ذلك قوله تعالى: ﴿والله بصير بالعباد﴾ [آل عمران:15]، أي: إنه سبحانه عليم بمن آمن به من عباده، ومن كفر به. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ [الأنعام:18].

ثانياً: بمعنى المؤمنين من عباده خاصة، من ذلك قوله تعالى: ﴿والله رءوف بالعباد﴾ [البقرة:207]، قال الطبري: والله ذو رحمة واسعة بعباده المؤمنين في عاجلهم وآجل معادهم، فينجز لهم الثواب على ما أبلوا في طاعته في الدنيا، ويسكنهم جناته على ما عملوا فيها من مرضاته.

ثالثاً: بمعنى الكافرين والعاصين من عباده خاصة، من ذلك قوله سبحانه: ﴿يا حسرة على العباد﴾ [يس:30]، أي: يا حسرة على الكافرين بأنعم الله، والمكذبين لرسله وندامتهم يوم القيامة، إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله. ومن هذا القبيل قوله عز من قائل: ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا﴾ [الإسراء:17].

رابعاً: بمعنى المصطفَين والمجتبَيْن من الناس، كالأنبياء وغيرهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ [فاطر:32]، أي: اخترنا الخُلَّص من الناس. وعلى هذا النحو قوله عز وجل: ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ [النمل:59].

خامساً: بمعنى سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله سبحانه: ﴿**وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا**﴾ [الجن:19]، أي: لما قام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله، تجمع ضده المشركون، وكادوا له كيداً. ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ [النجم:10].

سادساً: بمعنى التوحيد، من ذلك قوله تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا**﴾ [النساء:36]، أي: ذلُّوا لله بالطاعة، واخضعوا له بها، وأفردوه بالربوبية، وأخلصوا له بالانتهاء إلى أمره، والانزجار عن نهيه. وعلى هذا النحو قوله عز من قائل: ﴿**أن اعبدوا الله ربي وربكم**﴾ [المائدة:117].

سابعاً: بمعنى الطاعة، من ذلك قوله سبحانه: ﴿**فإياي فاعبدون**﴾ [العنكبوت:56]، قال الطبري: فأخلصوا لي عبادتكم وطاعتكم، ولا تطيعوا في معصيتي أحداً من خلقي. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿**أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**﴾ [سبأ:40]. ومجيء لفظ (العبادة) بمعنى (الطاعة) كثير في القرآن.

ثامنا: بمعنى العبد المملوك، مثل قوله تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ**﴾ [النحل:75]

ومن المفيد أن نشير ختاماً إلى أن لفظ (عبد) وما اشتق منه من ألفاظ في القرآن، يحدده أولاً المعنى الشرعي لهذا اللفظ، ثم يحدده ثانياً السياق الذي ورد فيه، والمعنى اللغوي حاضر عند التدقيق والتأمل. ومن ثم فإن المتأمل، في جميع موارد الجذر (عبد) وما اشتق منه من ألفاظ في القرآن الكريم يلحظ أنه تضمن معناه اللغوي الأوسع، الذي هو الخضوع والذلة، كما تضمن معناه الشرعي بمعنى إفراد الله بالطاعة والعبودية، ثم أخيراً تحدد معناه الأضيق من خلال السياق الذي ورد فيه.

العنصر الثالث: أنواع العبودية لله تعالى.

العبودية نوعان: عامة وخاصة.

فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:88-93] فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: 17] فسماهم عباده مع ضلالهم، ولكن تسمية مقيدة بالإشارة وأما المطلقة: فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46] وقال ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [الغافر: 31] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [الغافر: 48] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: 68] وقال ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ [الزخرف: 68] وقال تعالى: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82]، ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 83] فقال تعالى عنهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[الحجر: 42].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته.

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقا، إلا لهؤلاء:

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية: فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

إما منكرا، كقوله ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93].

والثاني معرفة باللام: كقوله ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [الغافر: 31] وقوله:﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [الغافر: 48].

الثالث: مقيدا بالإشارة أو نحوها، كقوله ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: 17].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر. كقوله ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53].

وقد يقال: إنما سماهم (عباده) إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، يقال: (طريق مُعَبَّد) إذا كان مذللا، بوطء الأقدام، (فلان عَبَّده الحب) إذا ذله، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا.

العنصر الرابع: حقيقة العبادة ومفهومها في الإسلام.

وحقيقة العبادة: هي استسلام القلب والجوارح لله حبًا وخضوعًا له، وخوفًا من عقابه، لا شريك له في شيءٍ من ذلك ألبته، فهو المستحقُّ للعبادة وحده دون ما سواه.

مفهوم العبادة في الإسلام:

هو أن يكون ما اشتمل عليه ضمير الإنسان وجميع أقواله وأفعاله لأجل الله عزَّ وجل على مراده، والمعنى أنَّ كلَّ حركة يقوم بها المسلم في حياته يكون الدافع لفعلها رجاء محبة الله ورضوانه، فقول القول لله وتركه لله، وفعل الفعل لله وتركه لله، وهكذا فحياته لله جميعها، بل وموته لله كما قال تعالى آمرًا نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يقرِّر هذا للناس، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163].

بل إنَّ الإسلام قد أسبغ على جميع أعمال الإنسان صفة العبادة إذا قصد بهذه الأعمال وجه الله ومرضاته، وقام بها على الوجه المشروع الموافق للسنة، وكانت في سبيل تحقيق أهدافها المقصودة المشروعة، فالمزارع والصانع والتاجر وغيرهم من أصحاب الأعمال تُعتَبر أعمالهم عبادة إذا قصد بها كلٌّ منهم نفعَ عباد الله والاستغناء عن الحاجة إلى الناس وإعالة العيال، تحقيقًا لأمر الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا فكلُّ ما أُمر به شرعًا سواءً كان من الشعائر أو من سائر أحوال الناس إذا ابتغى به فاعله وجه الله – عزَّ وجل – فهو عبادة سواء رتّب الشارع عليه جزاءً مُحدَّدًا أو أتى الأمر به مُطلقًا دون تحديد جزاء، وهذا من فضل الله ورحمته بعباده، فمثال ما رُتِّب على فعله جزاء ويحصل للمسلم هذا الجزاء إذا كان إنما فعله من أجل الله، ما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سُلامَى من

الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الـ شمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقـ ـــ ـــة، وبكل خطـــــوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

فاشـــتمل الحديث على بعض الآداب، وجعل الشـــارع القيام بها عبادة يُثاب عليها المســـلم إذا نوى أنه إنما قام بها من أجل الله عزَّ وجل، كما أن التحلِّي بالأخلاق يُعتبر عبادةً أيضًا، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق».

ومثل ما أُمر به شرعًا ولم يُحدَّد على فعله جزاءً معينًا، ويعتبر القيام به عبادة إذا نُوي بها القربة لله ويؤجر عليها، إجابة دعوة المسلم، قال عليه الصلاة والسلام «إذا دُعي أحدكم فليجب، فإن كان صائمًا فليصل، وإن كان مفطرًا فليطعم» . فمن كانت نيته في إجابة الدعوة امتثال أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وإدخال السرور على أخيه المســـلم كان فعله عبادة، أما من لم تكن له نية في إجابتها فلا يُعتبر قد قام بعبادة، وهذا ينطبق على كلِّ أمرٍ من شئون الحياة، من مأكلٍ ومشربٍ ومنكحٍ ونومٍ ويقظةٍ وسفرٍ وإقامة، وهكذا، فمن نوى بكلِّ هذه وأمثالها وجه الله فهي عبادةٌ مأجورٌ عليها، وكلَّما كانت النية أشمل كان الأجر أعظم لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...» الحديث .

قال عبد الله بن المبارك: " ربَّ عمل صغير تعظمه النية، وربَّ عمل كبير تُصغِّره النية " .

أما من لم ينوِ شيئًا فليست سوى أفعال عادية، لذا تباين الناس في ذلك تباينًا عظيمًا، فمن الناس من كلُّ عاداته وأفعاله عبادة لله لأنه مُحضر نيته، قاصد وجه الله بذلك، بينما بعض الناس قد تكون كلُّ عباداته حتى "الشعائر" أو بعضها عادات، وذلك لخلوِّ قلبه من

نية التقرُّب لله عزَّ وجل.

فالعبادة تشمل قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح:

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رُسله.

وقول اللســـان: الإخبار عنه بذلك والدعوة إليه والذَّبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له والتوكُّل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء له وإخلاص الدين له، والصـــبر على أوامره وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضـــا به وعنه والموالاة فيه والمعاداة فيه، والذل له والخضـــوع، والإخبات إليه والطمأنينة به وغير ذلك من أعمال القلوب التي فَرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح، ومستحبُّها أحبُّ إلى الله من مستحبِّها، وعمل الجوارح بدونها إمَّا عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فالدين كلُّه عبادة لأنه إنما شُرع من أجل أن يرسم للإنسان منهج حياته الظاهرة والباطنة ويُحدد سلوكه وعلاقته بالآخرين، بل إنَّ عبادة الله تَسَع الحياة كلَّها من آداب الأكل والشرب وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة وسياسة الحكم وسياسة المال وشئون المعاملات والعقوبات والعلاقات الدولية في الحرب والسلم وغير ذلك من شئون الحياة، ولذا خاطب الله عباده المؤمنين في كتابه العزيز بأوامر شاملة لجميع شئون الحياة، وليست مقصورة على الشعائر فقط كما يفهمه البعض – مع الأسف الشديد – فهم لا يفهمون من كلمة «عبادة» إذا ذُكرت إلاَّ الصلاة والصيام والصدقة والحج والعمرة، ونحو ذلك

من الأدعية والأذكار، ولا يحسب أنَّ لها علاقة بالأخلاق والآداب أو النُظم أو العادات والتقاليد، وكما يحسب بعض الناس أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر فقد وفَّوا الألوهية حقَّها وقاموا بواجب العبودية لله كلِّها، وهذا خطأٌ وفهم قاصر في مفهوم العبادة.

صحيح إنَّ هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية في الإسلام، لكنها لا تعني أنها كلّها، إنما هي جزء من العبادات لله وليست هي كلُّ العبادة التي يريدها الله من عباده.

والحقُّ أنَّ دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان وجعلها غايته في الحياة ومهمته في الأرض دائرة رحبة واسعة، إنها تشمل شئون الإنسان كلها وتستوعب حياته جميعًا، وهذا ما نزل القرآن به، وعلَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، والأدلَّة من سُنته أكثر من أن تُحصى كما ذكرت سالفًا بعضًا من ذلك.

فالرسول عليه الصلاة والسلام علَّم أصحابه أنَّ كلَّ أمرٍ يقوم به المسلم فهو عبادة إذا قَصد وجه الله، حتى أنه لَمَّا ذكر بعضًا من القربات إلى الله ذكر من بينها مباضعة الرجل لزوجته، كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: إن أُناسًا قالوا: يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نُصلِّي ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضول أموالهم، قال «أو ليس قد جعل الله لكم ما يصدَّقون به؟ إنَّ بكلِّ تسبيحة صدقة، وكلِّ تكبيرةٍ صدقة، وكلِّ تحميدةٍ صدقة، وكلِّ تهليلةٍ صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» .

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقَّاص عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُثِبتَ عليها، حتى اللقمة تجعلها في فيِّ امرأتك» .

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

المفهوم الشمولي للعبادة:

هو الذي فهمه الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من العلماء. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: "لكني أنام ثم أقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي" .

وقال زيد الشامي: "إني لأحب أن تكون لي نية في كلِّ شيء حتى في الطعام والشراب"

وقال عبد الله بن المبارك: "رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظمه النية، وربّ عمل كبير تصغره النية".

قال ابن رجب: قال بعض السلف: " من سرَّه أن يكمل له عمله فليحسِّن نيته؛ فإنَّ الله – عز وجل – يؤجِر العبد إذا أحسن نيته حتى باللقمة".

قال الذهبي: "من التفرُّغ للعبادة السعي في السبب، ولاسيَّما لمن له عيال".

لذا يجب على كل مسلم ذي بصيرة تصحيح هذا المفهوم الخاطئ لدى بعض الناس نحو العبادة ومفهومها على نحو ما شرعه الله في كتابه العزيز وأوضحه النبي – عليه الصلاة والسلام – في سُنته.

الدرس الثاني: أهمية العبادة

فإنَّ الله لَمَّا خَلق المخلوقات جعل جميعها متعبِّدة له التعبُّد العام، سواء أقرَّ المقِرُّ بذلك أم لا، فهم مدينون له، مُدبَّرون بأمره، قد أسلموا له طوعًا أو كرهًا، ليس لأحدٍ من المخلوقات خروجٌ عمَّا شاءه وقدَّره وقضاه، فهو خالقهم وبارئهم ومصورهم ومليكهم، يصرفهم كيف يشاء، وكل ما سواه مربوب مفطور محتاج فقير إليه – جلَّ وعلا – وهذه عبودية عامة.

لكن اللهَّ قد اختصَّ بعض خلقه وكلَّفهم بعبودية خاصة يقومون بها، بل إنما خلقوا لأجل القيام بها، ومن ذلك الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

ومن رحمة الله بهم أنه لم يكلهم في عبادتهم على عقولهم يتخبَّطون فيها، بل أرسل رسله – عليهم الصلاة والسلام – وأنزل كتبه موضِّحة كيف يعبدون الله ويتقرَّبون إليه. ولهذا كانت مهمَّة جميع الأنبياء دعوة أقوامهم على توحيد الله وإفراده بالعبادة، كما قال تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم في بيان ما أوحى به إلى الرسُل قبله، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] فكل رسول من الرسل – عليهم الصلاة السلام – افتتح دعوته بالدعوة إلى عبادة الله وحده والقيام بها على مراد الله – عزَّ وجل – كقول نوح ومن بعده كما في سورة الأعراف وغيرها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: 84].

إنها دعوة لعبادة الذي خلق الإنسان من العدم، ونفخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، تلك العبودية التي شرَّف الله من دخل في ظلِّها، واستنار بهديها، فنال سعادة الدنيا والآخرة، والإنسان لا ينفكُّ عنه وصف العبودية لأنه كائنٌ حيٌّ ذو حاجات ومطامع وشهوات.

فإما أن يكون عبدًا لله وإلا فهو عبدٌ لغيره حتمًا، سواء كانت حاجاته أو مطامعه أو شهواته أو طواغيت الجن والإنس أو غير ذلك. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60-61].

ولقد اتفقت دعوة الرسل قاطبة على التحرُّر من كل معبودٍ سوى عبادة الله وحده، وكان آخرهم نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم الذي أُرسل إلى الثَّقَلَين الجن والإنس، وأنزل الله عليه القرآن ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9]. وامتنَّ الله على نبيه صلى الله عليه وسلم بإنزاله وشموله، فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89].

ولذا أكمل الله الدين بإرسال النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبإنزال القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسلام دِينًا﴾ [المائدة: 3], وبلَّغ الرسول – عليه الصلاة والسلام – أمَّته البلاغ المبين، فلا خير إلا دلَّ الأمَّة عليه، ولا شرَّ إلا حذَّرها عنه، وترك أمته على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

فوجب على المكلَّفين بعد قيام الحجة عبادة الله وحده بما شرع لهم، وهذا هو حقُّ الله على العباد، كما روى معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار، فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟»

قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقُّ العباد على الله ألاَّ يعذب من لا يشرك به شيئًا» الحديث.

فبالقيام بالعبادة لله يحصل للمرء الأنس وراحة الضمير وانشراح الصدر وطمأنينة القلب وتهذيب الأخلاق وتزكية النفس والتلذُّذ بحرية القلب من كلِّ معبود سوى الله، ولا ألذَّ ولا أطيب ولا أسرَّ ولا أنعم من محبة الله والأنس بعبادته، وبالعبادة يتحقَّق للعبد مرضاة ربه وحصول ثوابه وإتيان كتابه بيمينه والفوز بجنة ربه جزاء ما عمل من العبادات الصالحات في الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 19-24].

أمَّا من تنكَّب الطريق، وأعرض عمَّا شرع الله من العبادات، واستكبر عن عبادة ربه فإنَّ الله جعل له في الدنيا النكد والضنك في المعيشة، وظُلمة في القلب ووحشة في النفس، والقلق المستمر، والتخبُّط في عبادة الشهوات؛ تلك العبودية التعيسة والجحيم الدائم في حمأتها، وفي الآخرة غضب الله وأليم عقابه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: 124-127].

ولأهمية العبادة في حياة المسلم، بل هي الأهم في هذه الحياة فيجدر بيان حقيقتها وأركانها وشروط صحتها ومفسداتها من أدلتهاالواردة في الكتاب والسنّة، مدعمة بأقوال العلماء – عليهم رحمة الله – خاصة ونحن في وقتٍ قد حصر كثيرٌ من المسلمين مفهوم العبادة بالشعائر كالصلاة والزكاة والحجِّ والصوم وقراءة القرآن والذكر فقط، وأغفلوا – جهلاً – أنَّ العبادة شاملة لكلِّ أمرٍ يقوم به الإنسان في هذه الحياة، سواءً كان قولاً أم فعلاً كبيرًا أم صغيرًا ظاهرًا وباطنًا، حتى مع الأسف انبرى بعض الناس – جهلاً أو تجاهلاً – مناديًا ما دخل الدين بالحياة؟ فالعبادة في المساجد ونحوها، ولا دخل للدين في شئون الحياة! وهذا ولا شكَّ راجعٌ إلى الجهل بحقيقة دين الله، كما أنهم يجهلون حقيقة العبادة

ومفهومها في الإ سلام، ذلك المفهوم الـ شامل كما جاء في القرآن والـ سنة، فبحث هذه المـ سألة مهمٌّ جدًّا في حياتنا اليوم لفهم حقيقة دين الله، وتعليم الناس حقيقة العبودية حتى يكون فهمهم سليما صحيحا بموجب ما دلت عليه النصوص الشرعية.

الدرس الثالث: ثمرات العبادة

ثمرات العبادة "من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية"

الباعث الأ ساس لعبادة الرب سبحانه هو ا ستحقاقه تعالى لذلك فنحن نعبد الله جل وعلا لأنه مســـتحق للعبادة تحقيقا للغاية التي من أجلها خلق الإنس والجن كما قال الله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }[الذاريات: 56] فهو الم ستحق الوحيد للعبادة لعموم سلطانه على الكون وعظيم فضله على الخلق أجمعين . ومع ذلك يجب أن نعلم أن الله تعالى غني عن العالمين فالعبادة لا تزيده ولا تنق صه مثقال ذرة لأنه غني بذاته غنى مطلقا فلا يحتاج إلى شـــيء مما في الوجود بل كل ما في الوجود محتاج إليه قال الله تعالى {يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]

وعليه فإن ثمرة العبادة إنما ترجع إلى الشخص العابد نفسه إذ هو المحتاج إلى الله تعالى والمفتقر إليه ا ستعانة وتوكلا.. كما قال تعالى : {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْ سِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}[الإسراء: 15]

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

أنا الفقير إلى رب البريات *** أنا المسكين في مجموع حالاتي

وهذه الثمار هي:

أولا : تربية الروح وتغذيتها

ذلك أن الإن سان مكون من مادة وروح فإذا كان العن صر الج سدي فيه يجد حاجته في العنا صر المادية في الكون من مأكل وم شرب وملبس ومنكح وغير ذلك فإن العن صر الروحي لا يجد إ شباعا لحاجته إلا بالقرب من الله تعالى إيمانا به واتباعا حتى ي شعر بمعية ن صرته تعالى له وحفظه ورعايته وذلك لا يتحقق إلا بالعبادة سواء في ال ضراء أو في

الـ سراء كما قال الله تعالى مخاطبا ر سوله صلى الله عليه و سلم {لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَ ضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } { فَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ الـ سَّاجِدِينَ } { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر: 97-99].

وقال تعالى { إِذَا جَاءَ نَصْـــرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } { وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا } { فَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَا سْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } [الن صر:1-3] فدل ر سوله عليه الصلاة و السلام إلى التقرب إليه تعالى وعبادته.

ثانيا : تحقيق حرية الإنسان

فالعبادة لله تعالى تحرر المؤمن من الخضوع لغير الله تعالى فيصبح بذلك حرا طليقا من سلطان سوى سلطان الله تعالى وبذلك يصل إلى شاطئ الأمان ويحس بالسكينة إلى الله تعالى فإن مصـــــدر العزة إنما هو اللجوء إلى الله تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: 10]

قال شيخ الإسلام رحمه الله :" وَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ فَصَارَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ . فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ" الفتاوي

ثالثا : تمحيص المؤمن بابتلائه بالعبادة إعدادا له للحياة الآخرة

قال الله تعالى على ل سان مو سى عليه الـ سلام { يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ } [غافر: 39] فالدنيا دار ابتلاء ومادة هذا الابتلاء هي عبادة الله تعالى تحقيقا لأمره { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـــنُ عَمَلًا } [الملك: 2]

رابعا : العبادة سبيل لصلاح المجتمع

بالنظر إلى العبادة بمفهومها الـ شامل نجد أنها شاملة لكل أوجه الإ صلاح الفردي والاجتماعي حيث إن كل عمل يقوم به الفرد أو تقوم به الجماعة يدخل في إطار العبادة.

وقد شرع الإسلام مبدأ فروض الكفاية التي يراعي فيها صلاح الجماعة والمجتمع قال الله تعالى { **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** } [النور: 55]

وجماع هذه الثمار تحقق السعادة الدنيوية والأخروية.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :" من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية" المدارج لابن القيم

وقال الناظم :

الدين جاء لسعادة البشر *** ولانتفاء الشر عنهم والضرر

جاء في تفسير قوله تعالى : «**وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً**»[الجن: 16-17].

يقول اللّه – سبحانه – إنه كان من مقالة الجن عنا : ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة ، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفورا نغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء ..

«لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ» .. ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون.

وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم في هذه النقطة ، يزيد مدلولها توكيدا بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى اللّه سبحانه. ومثل هذه اللفتات كثير في الأسلوب القرآني ، لإحياء المعاني وتقويتها وزيادة الانتباه إليها.

وهذه اللفتة تحتوي جملة حقائق ، تدخل في تكوين عقيدة المؤمن ، وتصـــوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها.

والحقيقة الأولى : هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى اللّه ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه. وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة. وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة ، ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء. ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية ..

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة. وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء ، وتتدفق فيها الأرزاق. ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابا. وما يزالون في نكد وشظف ، حتى يفيئوا إلى الطريقة ، فيتحقق فيهم وعد اللّه.

وإذا كانت هناك أمم لا تستقيم على طريقة اللّه ، ثم تنال الوفر والغنى ، فإنها تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء. وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته (كما سبق بيانه في سورة نوح) ..

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هذه الآية : هي أن الرخاء ابتلاء من اللّه للعباد وفتنة. ونبلوكم بالشر والخير فتنة. والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة! على عكس ما يلوح للنظرة العجلى .. فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها بحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومقاومة ومن ذكر للّه والتجاء إليه واستعانة به ، حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره. فأما الرخاء فينسي ويلهي ، ويرخي الأعضاء وينيم عناصر المقاومة في النفس ، ويهيئ الفرصة

الدرس الرابع: أركان العبادة

عناصر الدرس

العنصر الأول: تمهيد

العنصر الثاني: الركن الأول–المحبَّة

العنصر الثالث: الركن الثاني–الرجاء

العنصر الرابع: الركن الثالث–الخوف

العنصر الأول: تمهيد

من حكمة الله –عزَّ وجلَّ – أن جعل لكل شـــيء في الوجود يراد قيامه وانتصـــابه أركانًا يقوم عليها ويعتمد، سواء كان معنويًا أو حسيًا، فلا يمكن أن يقوم ويكون له أثر في الوجود إلا إذا ا ستكمل ما يلزمه من أركان، ومن ذلك عبادة الله – عز وجل – فلا يمكن أن تقوم وتســـمَّى عبادة إلا إذا توفرت فيها كل عبارة على هذه الأركان، أما إذا فقد واحد منها فإنه لا قيمة لها، وبالتالي فلا تسمَّى عبادة.

والعبادة لا تقوم وتســـتقيم إلا بأركانها الثلاثة، فلا بدَّ من اجتماعها في قلب العبد وأن تكون مجتمعة حال فعله للعبادة، بل الدافع لفعلها اجتماعها، وهي:

1-المحبة.

2-والخوف.

3-والرجاء

وأقواها المحبة، وهي المقصودة لذاتها لأنها تُراد في الدنيا والآخرة، فالمحبة تلقى العبد في الـ سير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إلى الله بخلاف الخوف؛ فإنه يزول في الآخـــــــرة، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

قال الإمام : إن المحب لمن يحب مطيـــع

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محال في القياس بديـــع

لو كان حبك صادقا لأطعتـــه ... إن المحب لمن يحب مطيـــع

في كل يوم يبتديك بنعمـــــة ... منه وأنت لشكر ذلك مضيع

والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب.

والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم، يجب على كلِّ عبد أن يتنبهَّ له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكلُّ أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره.

فالقلب في سيره إلى الله عزَّ وجل بمنزلة الطائر:

فالمحبة رأسه.

والخوف والرجاء جناحاه.

فمتى سَـــلِم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قُطِع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِد الجناحان فهو عرضة لكلِّ صائدٍ وكاسر.

ولكنَّ استحب العلماء أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف.

ومن العلماء من يقول: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرَّجاء فسد.

عن أبي هريرة قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم فقال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا ألا وقد كان لفلان

ومن العلماء من يقول: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب. فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ والخوف سائقٌ، والله الموصل بمنّه وكرمه.

ولعلَّ الراجح أن يعتدل رجاء العبد وخوفه، فلا يطغى أحدهما على الآخر إلا عند الاحتضار، فيغلِّب جانب الرجاء والثقة بالله عزَّ وجل، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزَّ وجل».

واعتدال الرجاء والخوف في الحياة قد اختاره جملة من العلماء.

قال النووي: "اعلم أنَّ المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفًا راجيًا، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يمحِّض الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة متضافرة على ذلك، لأنَّ العبد في ساعة الاحتضار وما بعدها أحوج ما يكون إلى رحمة الله عزَّ وجل، فلا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ولا يستطيع أن يعمل صالحًا، فلزم أن يكون راجيًا مغفرة الله ورضوانه ويظنُّ بالله خيرًا، والله عند ظنِّ عبده به.

العنصر الثاني: الركن الأول-المحبَّة:

فمن عبد الله ولم يكن محبًا له فلا عبادة له، بل لا بدَّ أن تكون عبادته قائمة على محبة الله وتعظيمه.

والأدلة على ذلك:

1-قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾ [البقرة: 165]

قال ابن كثير: "ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده، ويتوكَّلون عليه، ويلجئون في جميع أمورهم إليه " .

2-وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...﴾ [التوبة: 24].

فمن كان محبًا لله، لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسَّى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله، وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله. وذلك لأنَّ الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان.

3-عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار» .

والشاهد قوله: « أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما» فكلَّما عظمت محبة العبد لربه كلَّما عظم تقرُّبه له وقويت صلته به وزادت عبادته، وبذلك تحصل محبة الله للعبد، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنَّ الله قال: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه

الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

فمن أحب الله حبًّا صادقًا بحيث يدفعه للعمل المشروع والبعد عن المحذور فإنَّ هذا يورث محبَّة الله له، ومن أحبه الله فهو من أوليائه الذين قال فيهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: 62-64].

والمراد بها أن يكون العبد مُحبًا لله تعالى، ومحبته له منتهى الحب، لذا يفعل العبادات بدافع محبته لله وخوفه ورجائه له، طلبًا في إرضاء محبوبه، فالذي دفعه لفعل العبادة هو محبته له - عزَّ وجلَّ - وهو أعظم ركن في العبودية، فمن لا يحب الله لم يكن عابدًا، وليس في الوجود من هو أجدر من الله - تعالى - بأن يُحَب، فهو صاحب الفضل والإحسان، الذي خلق الإنسان ولم يكن شيئًا مذكورًا، وخلق له ما في الأرض جميعًا، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة وخلقه في أحسن تقويم، وصوَّره فأحسن صوره وكرَّمه وفضَّله على كثيرٍ ممَّن خلقه، ورزقه من الطيبات وعلَّمه البيان واستخلفه في الأرض، ونفخ فيه من رُوحه، وأَسجَدَ له ملائكته، فمن أولى من الله بأن يُحب.

فالعبادة المأمور بها تتضمَّن معنى الذلِّ ومعنى الحب؛ فهي تتضمَّن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحبَّ شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما يُحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحبَّ على العبد من كلِّ شيءٍ وأن يكون الله أعظم عنده من كلِّ شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله، وكلُّ ما أحبّ لغير الله فمحبته فاسدة.

العنصر الثالث: الركن الثاني–الرجاء:

والرجاء من الأمل نقيض اليأس.

الرجاء هو: حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة، ويطيِّب لها السير.

وقيل: هو الا ستب شار بجود وف ضل الربِّ تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل هو الثقة بجود الربِّ تعالى.

والرجاء ركنٌ في العبادة، والمراد به هو أن يفعل العبد العبادة بدافع – أيضًا – الرجاء في ثواب الله ورحمته ورجاء مرضاته، لأنه هو النافع فهو المرجو جلَّ وعلا وحده دون ما سواه. والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه.

والأدلة على ذلك:

1–قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90] فالله وصف حال بعض أنبيائه وذكر عبادهم والدافع لها ومن ذلك الرجاء مما يدل على كونه مقربًا إلى الله تعالى.

2–وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 56–57] فأخبر تعالى عن خواصّ عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقرَّبون بهم إلى الله تعالى أنهم كانوا راجين له خاضعين.

3-وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 60].

4-وقال تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9]. فوصف المؤمنين أنهم يرجون الله طمعًا في ثوابه والقرب منه.

5-وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 218] فأخبر عن الصحابة المهاجرين الذين فرُّوا بدِينهم وتركوا أموالهم وأولادهم وأوطانهم وما عملوه في الإسلام والدافع لذلك.

6-وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي»

7-وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتن أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظن بربه».

ومن الفوائد في رجاء العبد لربه:

أ-**إظهار العبودية والفاقة**، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغنى عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ب-ومنها: أنه يحب – سبحانه – من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله لأنه الملك الحقُّ الجواد، أجود من سُئِل، وأوسع من أَعطى، وأحب شيء إلى الجواد أن يُرجى ويؤمل ويُسأل.

ج-ومنها أنَّ الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى الله، ويطيب له المسير، ويحثُّه عليه،

ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء ما سار أحد، فإنَّ الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يُحرِّكه الحب، ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء.

د–ومنها أنه يبعثه على أعلى المقامات وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية؛ فإنه إذا حصل له مرجوُّه كان أدعى لشكره.

ه–ومنها أنه يوجب له المزيد من معرفة لله وأسمائه ومعانيها والتعلُّق بها؛ فإنَّ الراجي متعلِّق بأسمائه الحسنى متعبِّدٌ بها، داع بها.

و–ومنها أنَّ العبد إذا تعلَّق قلبه برجاء ربه فأعطاه كان ذلك ألطف موقعًا وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يَرجُهُ، وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

ز–ومنها أنَّ الله – سبحانه وتعالى – يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحبِّ عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف،

ح–ومنها أنّ في الرجاء من الانتظار والترقُّب والتوقُّع لفضل الله ما يُوجب تعلُّق القلب بذكره ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته.

والفوائد أكثر من أن تحصى.

وفي عدم رجاء العبد لربه يأس وقنوط من رحمته، وهذا محرم لا يجوز بل هو كُفرٌ كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87].وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام في جوابه للملائكة ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾

[يوسف: 87].

كما نهى – تعالى – عباده الذين ارتكبوا المحرَّمات وأ سرفوا على أنفسهم ألا يقنطوا من رحمة الله، وعليهم الا ستقامة ورجاء ثوابه، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر: 53].

وقد جعل الر سول – عليه الـ صلاة والـ سلام – الدعاء هو العبادة كما في حديث النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدعاء هو العبادة» وذلك لأنَّ الدعاء من أقوى أ سباب الرجاء لذلك يغضب الله على من ترك دعاءه ؛ لأنه ترك للرجاء كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم – قال: «من لم يسأل الله يغضب عليه» .

العنصر الرابع: الركن الثالث- الخوف:

فكما أنَّ المسلم يعبد ربَّه تبارك وتعالى حبًّا له ورجاءً لثوابه وطمعًا في جنته، فإنه كذلك يعبده خوفًا من عقابه وحذرًا من ناره.

تعريف الخوف:

قال أبو القاسم الجنيد: هو توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكُّر المخوف.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

والوجل والخوف والخـ شية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة.**والخـ شية أخصُّ من**

الخوف؛ فإنَّ الخشيـــــــــــة للعلمـــــــاء بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]. فهو خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي صـــلى الله عليه وســـلم: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله...» **الحديث**

فالخوف حركة، والخ شية انجماع وانقباض و سكون" لذا يجب على العابد أن يعبد الله بدافع ما مضى من الأركان وبدافع الخوف من الله عزَّ وجل.

والأدلة على وجوب الخوف من الله تعالى:

1-قوله تعالى: ﴿... وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]،

2-وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 117]،

3-وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْ ِسدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِ ْصلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56].

4-وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ...﴾ [المائدة: 44]

5-و قال تعالى﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْـــفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: 27-28] ، فمدح الخائفين والخا شعين لله في معرض ذكر صفات المؤمنين .

6-وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَـــارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: 90] ، في وصف بعض أنبيائه.

7-وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50] في معرض إخباره عن ملائكته والدافع لعبادتهم.

8-وقال تعالى: ﴿... أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورًا﴾ [الإسراء: 57] في وصفهم أيضًا.

9-وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 60] في وصف المؤمنين.

10-وقال تعالى:﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 9-10] عن المؤمنين وما عملوه والدافع لذلك.

11-و قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46] في و عده لمن خافه أن يُدخله الجنة.

12-وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 40-41]

13-وقال عليه الصلاة والسلام: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله».

14-وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: يا رسول الله قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60] أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟

قال:«لا يا ابنة الصديق، ولكنَّ الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألاَّ يُقبَل منه» .

قال الحسن البصري: "عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُردَّ عليهم، إنَّ المؤمن جمع إحسانًا وخشيةً والمنافق إساءةً وأمنًا".

وقال ابن كثير: " يُعطون العطاء وهم خائفون وجلون ألاَّ يُتقبَّل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشروط العطاء".

الخوف المشروع:

الخوف المحمود الصـــادق: ما حال بين صـــاحبه وبين محارم الله – عز وجل – فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، قال أبو عثمان: صـــِدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا.

فوائد الخوف من الله تعالى:

1- **أنه يحمي العبد من الوقوع في المعاصي والآثام.**

كما حكى الله عن ابن آدم الذي تبرَّأ من مقاتلة أخيه إذ أراد قتله، وأوضـــح أنَّ السبب في الكفِّ عن مقاتلته هو خوفه من الله، فقال تعالى عنهما: ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 27-28]

2- **أنه يدفع إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها.**

يقول عليه الصلاة والسلام: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة».

الدرس الخامس: شروط صحة العبادة

عناصر الدرس

العنصر الأول: الشرط الأول-الإخلاص

العنصر الثاني: الشرط الثاني-المتابعة

العنصر الثالث: أقسام الناس في شروط صحة العبادة

شروط صحة العبادة

من رحمة الله بعباده – وهو أرحم الراحمين – أنه لَمَّا فرض عليهم عبادته وجعلها مبنيةً على محبته ورجائه وخوفه، أوضح لهم بعد ذلك شروط صحة تلك العبادة، وأنها لا تكون صحيحة ومقبولة عنده إلا إذا توافرت فيها هذه الشروط، وقد دلَّ عليها الكتاب والسنة وإجماع الأمَّة وهي:

العنصر الأول: الشرط الأول- الإخلاص:

فالإخلاص هو لبُّ الدين، وعموده الأعظم،

تعريف الإخلاص:

الإخلاص لغة:

وهو لغةً: «تصفية الشيء وتنقيته»، يقال: خلص الشيء من الشوائب إذا صفا، وأخلص الشيء: نقاه، وخلَّصه: أزال عنه ما يكدره.

الإخلاص شرعا:

اختلفت عبارات العلماء في المراد به شرعًا:

فقيل: هو «قصد المعبود وحده بالعبادة» كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]

وقيل: تخليص القلب من كلِّ شوب يُكدِّر صفاءه.

وقيل: التوقِّي من ملاحظة الخلق.

وقيل: إفراد الحقِّ سبحانه في الطاعة بالقصد.

وقيل: أن يكـــون الداعـــي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك المنهي إرضاء الله تعالى.

والتعريفات متقاربة، ومدارها على أن يريد العبد بطاعته التقرُّب إلى الله سبحانه دون أيِّ شيءٍ آخر من تصنُّعٍ لمخلوقٍ أو اكتساب محمدةٍ عند الناس، أو محبة مدحٍ من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرُّب به إلى الله تعالى.

أهل الإخلاص

أهل الإخلاص للمعبود والمتابعـــة هم: من كانت أعمالهم كلُّها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم وطلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم ولا هربًا من ذمِّهم، بل قد عدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا ولا حياةً ولا نشورًا.

الأدلة على شرط الإخلاص:

وردت أدلَّةٌ كثيرةٌ في الكتاب والسُنة مُقرِّرةً هذا الشرط، ومنها:

1-قوله تعالى آمرًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يُوضِّح لأمته ما أُمر به من قِبل الله – عزَّ وجل – فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾[الرعد: 36] ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 11]

2-وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14]

3-وقال تعالى موضحًا ما أُمـــــر بـــه المؤمنـــــون: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ...﴾ [البينة: 5]

4-وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: 19-21]

5-وقـــــــال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: 37]

6-وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 10]

7-وقال عليـــــه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امـــــرأة ينكحها فهجرتـــــه إلى ما هاجر إليه»

8-وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

9-وفي رواية أخرى: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»

10-وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»

فهذه الأدلة تدلُّ على وجوب إخلاص النية في جميع العبادات.

أهمية الإخلاص.

الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله إن كان عبادة محضة كالصلاة والزكاة والصيام والحج والطواف وقراءة القرآن، وشـــرط لحصـــول الثواب إن كان غير ذلك كالأكل والشرب والنوم والكسب ونحو ذلك.

وما أعظم مقام الإخلاص عند الله! وما أشـــقَّه على النفس! لذا جديرٌ بالمســـلم أن يجاهد نفسه ويحاسبها في كلِّ قول وعمل، بل وفي كلِّ مقام ولحظة.

قال سهل بن عبد الله: "ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب

وقال يو سف بن الح سين الرازي: " أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر.

فعمل القلب هو رُوح العبودية ولُبها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجســـد الميت بلا رُوح، والنية هي عمل القلب.

والكلام في م سألة النيَّة شديد الارتباط بأعمال القلوب ومعرفة مراتبها وارتباطها بأعمال الجوارح وبنائها عليها وتأثيرها فيها صـــحةً وفســـادًا، وإنما هي الأصـــل المراد المقصـــود، وأعمال الجوارح تبع ومكمِّلة ومتمِّمة، وأنَّ النية بمنزلة الرُوح، والعمل بمنزلة الج سد للأع ضاء، الذي إذا فارق الروح فموات، وكذلك العمل إذا لم ت صحبه النية فحركة عابث، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هو أصـــلها، وأحكام الجوارح متفرِّعة عنها.

والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهرًا وباطنًا، وقدَّموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضـــاء تبعًا لها، وهي حقيقة العبودية، ومن المعلوم أنَّ هذا هو مق صود الربِّ بإر سال ر سله وإنزال كتُبه و شرعه شرائعه. ومن تأمَّل ال شريعة في مصـــادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأنَّ أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كلِّ واحد منهما من الأعمال التي ميّزت بينهما، وهل يمكن لأحدٍ الدخول في الإ سلام إلاَّ بعمل قلبه قبل جوارحه، فعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كلِّ وقت، ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام، والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان، فمركب الإيمان القلب، ومركب الإسلام الجوارح.

إن أساس القبول لأي عبادة هو إخلاص القلوب لله تعالى، فإن حقيقة العبادة ليست شكلا يتعلق بالمظهر، ولا رسما يتصل بالجسد، ولكنها سر يتعلق بالقلب، وإخلاص ينبع من الروح، فإذا لم يصْدُق قلب المسلم في عبادته، و لم يخلص لله في طاعته، وأداها رسوما خالية من الروح، كما ينطق الأبْلَه بالألفاظ الخالية من المعنى، فهناك يردّها الله عليه، كما يرد ال صيرفي النقاد الدراهم الزائفة. قال تعالى: **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخل صين له الدين حنفاء﴾** [البينة: 5]، **وقال :﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصـــا له الدين﴾** [الزمر: 2]، **وقال :﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين﴾** [الزمر: 11]، **وقال :﴿قل الله أعبد مخلصا له الدين﴾** [الزمر: 14].

فالقلب هو الأ ساس في الإ سلام، وهو مو ضع نظر الله تعالى، ومحل عنايته، وهو مستند القبول والفلاح في الآخرة، وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى أجـ سامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم"، "ألا إن في الجـ سد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب". ويقول الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ

حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾[ق: 31-34].

أثر الإخلاص في الأعمال.

وكل عمل شرعه الله ليتعبد به ويتقرب إليه يشترط فيه إخلاص النية لله تعالى، وقد هاجر بعض المسلمين في زمن النبي صلى الله عليه و سلم من مكة إلى المدينة من أجل امرأة يريد الزواج بها تعرف بأم قيس، فسماه من يعرفونه "مهاجر أم قيس".

وفي هذا الشـــأن حدثهم النبي ذلك الحديث الجامع الذي عده بعض المحدثين ربع الإسلام أو ثلثه أو نصفه، والذي افتتح به الإمام البخاري جامعه الصحيح "**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورســـوله فهجرته إلى الله ورســـوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصـــيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**".

وهذا الحديث أجمع علماء الإسلام في كل اختصاص على تلقيه بالقبول.

وقيمة "النية" في الإسلام لا تعتمد على هذا الحديث وحده، وإنما تعتمد على نصوص وأحاديث كثيرة مستفيضة، تعطي في مجموعها يقينا جازما بأن الأعمال بالنيات، وأن لكل امرئ ما نوى، ولو أخذنا كتابا كالترغيب والترهيب للحافظ المنذري مثلا لوجدناه يذكر في فضل النية الصالحة أحد عشر حديثا، وفي الترغيب في الإخلاص ثلاثة عشر حديثا، وفي الترهيب من الرياء أكثر من ثلاثين.

فهذا المجموع من الأحاديث وما شابهها، مع ما جاء في القرآن من آيات هو السند اليقين لقيمة النية في الأعمال.

العنصر الثاني: الشرط الثاني–المتابعة:

تعريف المتابعة:

ومعناها أن تكون عبادة المسلم تابعةً لِما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو تحقيق شهادة أنَّ محمدًا رسول الله، وهو طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألاَّ يعبد الله إلاَّ بما شرع عليه الصلاة والسلام.

الأدلة على ذلك:

والأدلة على هذا الشرط:

1- قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7].
2- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ [النساء: 64].
3- وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾ [النساء: 80].
4- وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36].
5- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ» رواه مسلم.

وفي رواية متفق عليها «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» أي مردود عليه غير متقبل منه كائنًا من كان.

قال ابن القيم رحمه الله وهو يذكر أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة قال ما نصه: "وكذلك أعمالهم وعبادتهم موافقة لأمر الله ولِما يُحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا

يقبل الله من عاملٍ ســـواه، وهو الذي ابتلى عباده بالموت والحياة لأجله، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: 2]. وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: "العمل الحسن هو: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السُنة. فلا يقبل الله من العمل إلاَّ ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردودٌ على عامله، يُرد عليه أحوج ما هو إليه هباءً منثورًا".

جماع هذه الشروط:

وقد جمع الله بين هذه الشروط الثلاثة في آية واحدة، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: 125].

وبيان ذلك:

الشرط الأول- الإخلاص، ودليله قوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ...﴾ الآية.

والشرط الثاني- المتابعة، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾والمحسن هو ما كان عمله وفق ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

الشرط الثالث- صحَّة المعتقَد، ودليله قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ الآية.

أي: لا أحدَ أحسن من دينِ مَن جَمَع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله، الدَّال على استسلام القلب وتوجُّهه وإنابته وإخلاصه، وتوجُّه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وهو﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحسِن﴾ أي متبع لشريعة الله التي أرسل الله بها رُسله، وأنزل كتُبه وجعلها طريقًا لخواص خلقه وأتباعه.

﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ أي دينه وشرعه.

﴿حنيفًا﴾ أي مائلاً عن الشـــرك إلى التوحيد وعن التوجُّه للخلق، إلى الإقبال على الخالق".

فلا بدَّ من توفُّر هذه الشـــروط في العبادة حتى تكون صـــالحةً مقبولةً عند الله عزَّ وجل. أمَّا إذا اختلَّ شرطٌ من هذه الشروط فإنها لا تصحُّ، وبالتالي لا تنفع صاحبها، بل تكون وبالاً عليه.

نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

العنصر الثالث: أقسام الناس في شروط صحة العبادة

الناس منقسمون في هذا الباب إلى أربعة أقسام:

أحدها:أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة:

(الإخلاص): إذ إن أعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هربا من

ذمهم، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجاؤهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

(المتابعة): وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بلا عباده بالموت والحياة لأجله، قال الله تعالى: "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا". وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملا. قال الفضيل بن عياض :العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا و لم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا، و لم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، والخالص : ما كان لله، والصواب : ما كان على السنة، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا" وفي قوله: "ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن" فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورا، وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم "كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد" وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدا، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

القسم الثاني: مَنْ لَا إِخْلَاصَ لَهُ وَلَا مُتَابَعَةَ:

فَلَيْسَ عَمَلُهُ مُوَافِقًا لِشَرْعٍ، وَلَيْسَ هُوَ خَالِصًا لِلْمَعْبُودِ، كَأَعْمَالِ الْمُتَزَيِّنِينَ لِلنَّاسِ، الْمُرَائِينَ لَهُمْ بِمَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. فَإِنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ الأمور التي لم يشرعها الله، وَيجمعون معها الرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ، فَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوهُ مِنَ الِاتِّبَاعِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِلْمِ.

القسم الثالث: مَنْ هُوَ مُخْلِصٌ فِي أَعْمَالِهِ، لَكِنَّهَا عَلَى غَيْرِ مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ:

بعض الناس يظهر عليه الإخلاص في عمله لكنه يفعل أمورا مخالفةً للشرع كمن يَظُنُّ أَنَّ مُوَاصَلَةَ صَوْمِ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ قُرْبَةٌ، وَأَنَّ صِيَامَ يَوْمِ فِطْرِ النَّاسِ قُرْبَةٌ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وقد جاء الشرع بالنهي عن مواصلة الصوم. فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ الْوِصَالِ. قَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ. قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أُطْعَمَ وَأُسْقَى».

وأما صيام يوم العيد فقد ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ صِيَامِ يَوْمَيْنِ يَوْمِ الْأَضْحَى، وَيَوْمِ الْفِطْرِ»

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ صِيَامِ يَوْمَيْنِ، يَوْمِ الْفِطْرِ، وَيَوْمِ النَّحْرِ»

ومن هذا الباب ما جاء في حديث أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي، يسألون عن عبادة النبي، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي قد غفر له تقدم من ذنبه وما تأخر ؟! قال أحدهم: أما أنا فاصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً،

فجاء رسول الله إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» متفق عليه

القسم الرابع: مَنْ أَعْمَالُهُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ لَكِنَّهَا لِغَيْرِ اللَّهِ:

كَطَاعَةِ الْمُرَائِينَ، وَكَالرَّجُلِ يُقَاتِلُ رِيَاءً وَحَمِيَّةً وَشَجَاعَةً، وَيَحُجُّ لِيُقَالَ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ، فَهَؤُلَاءِ أَعْمَالُهُمْ ظَاهِرُهَا أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ مَأْمُورٌ بِهَا، لَكِنَّهَا غَيْرُ صَالِحَةٍ، فَلَا تُقْبَلُ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5] فَكُلُّ أَحَدٍ لَمْ يُؤْمَرْ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ بِمَا أَمَرَ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ.

ودليله حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتل في سبيل الله ورجل كثير المال، فيقول الله تبارك وتعالى للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي صلى الله عليه وسلم قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما علمت قال كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله تبارك وتعالى له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذاك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما آتيتك قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول الملائكة له كذبت ويقول الله بل إنما أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذاك ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقال له في ماذا قتلت فيقول أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذاك ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتي فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

الدرس السادس: تفاضل العبادات

عناصر الدرس

العنصر الأول: تمهيد

العنصر الثاني: التفاضل بين العبادات من حيث العبادة، ومن حيث العابد

العنصر الثالث: تفاوت أفهام الناس في أفضل العبادات وأنفعها، وأحقها بالإيثار والتخصص.

العنصر الأول: تمهيد

العبادات عموما تتفاوت فيما بينها من حيث الأفضلية، وتختلف مراتبها ودرجاتها، وأدلة تفاضلها وردت في السنة النبوية. والمراد بالمراتب –فاضل الأعمال ومفضولها، وأرجحها ومرجوحها –فإن كانت الأعمال طاعة علم أيها أحب إلى الله، وأكثرها أجرا وثوابا، وإن كانت معصية علم أيها أبغض إلى الله وأكثرها وزرا وعقوبة، وإن كانت الأعمال وسيلة إلى أهداف معينة علم أيها أقدر على تحقيق هذه الأهداف، وأيها أولى بذلك، وإن كان الإنسان أمام بدائل متعددة من خير أو شر، علم خير الخيرين وشر الشرين. فلكل منها من مميزات وخصائص تختلف بها عن غيرها؛ لمقاصد عظيمة؛ وحِكَم جليلة، تتجلى فيها عظمة هذه الشريعة، وكرم المشرع سبحانه وتعالى؛ وكما أنه سبحانه خلق المخلوقات وفاضل بينها بما يحقق المصلحة العظيمة، قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ [النحل: 71]. كذلك فضل بين العبادات وهذا ما أشارت إليه الأحاديث النبوية، ففي الحديث: «أي الأعمال أفضل».

فهذه الأحاديث وغيرها تدلّل على أن هناك تفاضلا بين العبادات، وأن بعضها أفضل من بعض، ونلاحظ من خلال النظر والتأمل بهذه الأحاديث وغيرها نرى تلك الأجوبة المختلفة مع أن السؤال واحد، وقد أجاب العلماء على هذه الأحاديث بأجوبة، نختار منها قول **الحافظ ابن حجر** في شرحه للجامع الصحيح "ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال.

1–**أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين**، بأنه أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم.

2–**أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات**، بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره، فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال لأنه الوسيلة إلى القيام بها، والتمكن

من أدائها، وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة، ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل.

3-**أو أنها أفضل ليست على بابها** بل المراد بها الفضل المطلق.

4-**أو المراد من أفضل الأعمال** فحذفت "من" وهي مرادة.

والظاهر هنا من الأجوبة بعض أوجه التفاضل بين العبادات.

العنصر الثاني: التفاضل بين العبادات وحصرها من حيث العبادة ومن حيث العابد:

من خلال ما تقدم في موضوع المفاضلة، تبين لنا أن وجوه التفاضل بين العبادات يمكن أن نحصرها في نقطتين أساسيتين، وهما:

النقطة الأولى: العبادة ذاتها.

والنقطة الثانية: العابد.

وتفصيل ذلك أن تفاضل العبادات ذاتها يكون من خلال وجوه عدة:

أولاً:تفاضل العبادة من حيث الوجوب والاستحباب، كما في الحديث القدسي: "ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب مما افترضته عليه".

والحديث فيه دلالة واضحة على أن الفرائض أفضل الأعمال لكونها أحب إلى الله، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في شرحه للصحيح نقولًا للعلماء تبيّن فيها وجوه فضل الفرائض على النوافل، وخلاصته: أن الفرائض أمرها محتوم، أما النوافل فهي على سبيل الترغيب، والاستحباب.

ثانيًا:التفاضل من حيث التحديد الزماني، كما في الحديث: إن عمرة في رمضان تعدل حجة معي". والحديث دليل على التفضيل في زمن خاص.

ومن ذلك تفاضل الصدقات، كما في الحديث: "يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت، لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان".

ثالثًا:تفاضلها من حيث التحديد المكاني، كما في الحديث: "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام".

ففي الحديث تصريح من النبي صلى الله عليه وسلم أن الصلاة في هذين المكانين أفضل من الصلاة في غيرهما من المساجد، إلى غيرها من وجوه التفاضل في العبادات الأخرى.

ومن ذلك تفاضل الصلاة بحسب الاجتماع والانفراد، كما في الحديث: "صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة".

ومن ذلك التفاضل بحسب التفاوت في مقدار الخطى إلى المساجد، كما في الحديث: "أعظم الناس أجرا أبعدهم إليها مَمْشَى فأبعدهم"

والنقطة الثانية: التفاضل بين العبادات من حيث العابد.

أبواب الرزق متنوعة ومتعددة، ومن حكمة الله أن تكون كذلك لتكتمل للناس أمور معاشهم، فحاجات الناس متنوعة ومتعددة تتكامل بها دورة حياتهم، والنّاس بين من يجيد مهنة أو عدداً من المهن تدر عليه دخلاً يعيش من ورائه ويدخر منه بحسب ما يدر عليه من مال، وهذه الأمور يعرفها كل الناس وهي من البديهيات لديهم. ولكن الذي قد لا يعرفه بعض الناس أن هناك صورة مشابهة لهذه الصورة ولكن في أبواب الطاعات ولعل

قصة الإمام مالك مع الرجل العابد تصلح كمدخل يقرب تلك الصورة، فقد أرسل أحد العباد رسالة للإمام مالك يقول له فيها: يا أبا عبد الله لو أنك تركت ما أنت فيه من العلم وتفرغت معنا للعبادة. فأجابه الإمام مالك بقوله: إن الله جعل أبواب الطاعات كأبواب الرزق فيفتح الله على هذا ما لا يفتح على هذا، فما أنت عليه خير وما أنا عليه خير، والسلام.

فهذا الرد على اختصاره إلا أنه أشار إلى مسألة مهمة يجب على المسلم استيعابها وهي أن العباد في نوافل الطاعات يتفاوتون فيما يفتح الله عليهم من تلك النوافل، فمن الناس من تراه يكثر من صيام التطوع في مقابل أن غيره لا يزيد على صوم الفريضة ولو صام يوماً تطوعاً لوجد مشقة كبيرة في ذلك، ومن الناس من يكثر من نوافل الصلوات والأذكار لكنه في باب الصدقة لا يزيد على أداء فريضة الزكاة، وهناك من تجده في باب الخلق لا يجاريه أحد، لكنه في غير ذلك من النوافل لا يرى له مزيد عمل، ومصداق ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، وقد يفتح لبعض الناس أكثر من باب، وهناك من تتعدد عنده الأبواب المتنوعة من الطاعات، ولو استعرضنا ما ورد في السنة النبوية في هذا الجانب لوجدنا أمثلة كثيرة تشير لذلك، ومنها ما وقع لأبي بكر رضي الله عنه لما جاء من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خيرٌ؛ فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريّان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة .فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة؛ فهل يدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها؟! قال: «نعم! وأرجو أن تكون منهم»».

وكما أن الناس في أبواب الرزق على ثلاثة أقسام فمنهم من هو من عالي الدخل، ومنهم من هو من متوسطي الدخل، ومنهم من هو من مستوى الدخل المنخفض، فكذلك الشأن في الطاعات فالله عز وجل يقول «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ». وعلى كل إنسان منا أن ينظر لهذا الأمر من منظور نفسه من جهة، فيعرف ما الذي فتح له من باب في الطاعة فيلزمه ويحافظ عليه ويزداد منه ولا يشق على نفسه في ميادين ليست متوائمة مع ما خصه الله به من خصال الخير. كما يجب أن ننظر للغير بنظرة من جنس نظرة الإمام مالك للعابد حيث قال له: فما أنت عليه خير وما أنا عليه خير، فالنظرة الإيجابية للناس مطلوبة باعتبار أن ما وُفِّقُوا له من الخير هو باب فتح لهم من الله، يرجي أن يكون سبباً لدخولهم الجنة، وقد نرى من بعض جوانب تقصير، وهذا لا يعني انعدام الخير لديهم بالكلية فقد يكون لديهم جوانب من الخير تخفى علينا، ومن الشواهد على ذلك، ما جاء عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أن رجلاً كان على عهد النبي –صلى الله عليه وسلم–، وكان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يُضْحِك رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتي به! فقال النبي –صلى الله عليه وسلم: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله». فهذه القصة يستفاد منها أن المتعين علينا أن لا نقيم الناس من منظور واحد، فكم نقع في مجالسنا في أعراض أناس، وننتقص من تدينهم ونذمهم، وقد يكون لهم من الأعمال التي تقربهم إلى الله ونحن لا نعلم، فواجب على الناس أن يكون لديهم فقه في هذه الجوانب لأنها توجد لديهم بعض التوازن في نظرتهم ومعاملتهم لمن حولهم، فالنصوص الشرعية تؤكد على أن لكل شخص ما يناسبه من الطاعات، كما أن لكل وقت ما يناسبه من الطاعات وهم في ذلك بين ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات، وما علينا إلا أن نذكر لكل شخص ما

يحمد له من خصال الخير وأن ندعو لمن نرى عليه تقصيراً بالصلاح والفلاح والتوفيق لما يحبه الله ويرضاه.

العنصر الثالث: تفاوت أفهام الناس في أفضل العبادات وأنفعها، وأحقها بالإيثار والتخصص.

انقسم الناس في ذلك إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها. وهؤلاء: هم أهل المجاهَدات والجَوْر على النفوس. قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثا لا أصل له " «أفضل الأعمال أحمزها» " أي أصعبها وأشقها، وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلّل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم رأوا هذا مقصودا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان:

فالعارفون المتبعون منهم إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرقهم وأذهب جمعيتهم.

والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه، وربما يقول قائلهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلا ... فكيف بقلب كل أوقاته ورد

ثم هؤلاء أيضا قسمان:

منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته،

ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعدٍ، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، فتصدوا له وعملوا عليه.

واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفاع متعدٍّ إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟ .

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم»

وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدّي، واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء» واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير»

وبقوله صلى الله عليه وسلم «إن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها».

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس، ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع، قالوا: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك

الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل".

وَالْأَفْضَلُ فِي أَوْقَاتِ السَّحَرِ الِاشْتِغَالُ بِالصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ، وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

وَالْأَفْضَلُ فِي وَقْتِ اسْتِرْشَادِ الطَّالِبِ، وَتَعْلِيمِ الْجَاهِلِ الْإِقْبَالُ عَلَى تَعْلِيمِهِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِ.

وَالْأَفْضَلُ فِي أَوْقَاتِ الْأَذَانِ تَرْكُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ وِرْدِهِ، وَالِاشْتِغَالُ بِإِجَابَةِ الْمُؤَذِّنِ.

وَالْأَفْضَلُ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْجِدُّ وَالنُّصْحُ فِي إِيقَاعِهَا عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَالْخُرُوجُ إِلَى الْجَامِعِ، وَإِنْ بَعُدَ كَانَ أَفْضَلَ.

وَالْأَفْضَلُ فِي أَوْقَاتِ ضَرُورَةِ الْمُحْتَاجِ إِلَى الْمُسَاعَدَةِ بِالْجَاهِ، أَوِ الْبَدَنِ، أَوِ الْمَالِ الِاشْتِغَالُ بِمُسَاعَدَتِهِ، وَإِغَاثَةُ لَهْفَتِهِ، وَإِيثَارُ ذَلِكَ عَلَى أَوْرَادِكَ وَخَلْوَتِكَ. وَالْأَفْضَلُ فِي وَقْتِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ جَمْعِيَّةُ الْقَلْبِ وَالْهِمَّةِ عَلَى تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ، حَتَّى كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَاطِبُكَ بِهِ، فَتَجْمَعُ قَلْبَكَ عَلَى فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ، وَالْعَزْمُ عَلَى تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ أَعْظَمُ مِنْ جَمْعِيَّةِ قَلْبِ مَنْ جَاءَهُ كِتَابٌ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى ذَلِكَ.

وَالْأَفْضَلُ فِي وَقْتِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ الِاجْتِهَادُ فِي التَّضَرُّعِ وَالْدُعَاءِ وَالْذِكْرِ دُونَ الصَّوْمِ الْمُضْعِفِ عَنْ ذَلِكَ.

وَالْأَفْضَلُ فِي أَيَّامِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ الْإِكْثَارُ مِنَ التَّعَبُّدِ، لَاسِيَّمَا التَّكْبِيرُ وَالْتَهْلِيلُ وَالْتَحْمِيدُ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْجِهَادِ غَيْرِ الْمُتَعَيَّنِ.

وَالْأَفْضَلُ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ رَمَضَانَ لُزُومُ الْمَسْجِدِ فِيهِ وَالْخَلْوَةِ وَالِاعْتِكَافِ دُونَ التَّصَدِّي لِمُخَالَطَةِ النَّاسِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِمْ، حَتَّى إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى تَعْلِيمِهِمُ الْعِلْمَ، وَإِقْرَائِهِمُ الْقُرْآنَ، عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

وَالْأَفْضَلُ فِي وَقْتِ مَرَضِ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ أَوْ مَوْتِهِ عِيَادَتُهُ، وَحُضُورُ جِنَازَتِهِ وَتَشْيِيعُهُ، وَتَقْدِيمُ ذَلِكَ عَلَى خَلْوَتِكَ وَجَمْعِيَّتِكَ.

وَالْأَفْضَلُ فِي وَقْتِ نُزُولِ النَّوَازِلِ وَأَذَاةِ النَّاسِ لَكَ أَدَاءُ وَاجِبِ الصَّبْرِ مَعَ خُلْطَتِكَ بِهِمْ، دُونَ الْهَرَبِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ لِيَصْبِرَ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يُؤْذُونَهُ.

وَالْأَفْضَلُ خُلْطَتُهُمْ فِي الْخَيْرِ، فَهِيَ خَيْرٌ مِنَ اعْتِزَالِهِمْ فِيهِ، وَاعْتِزَالُهُمْ فِي الشَّرِّ، فَهُوَ

أَفْضَلُ مِنْ خُلْطَتِهِمْ فِيهِ، فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا خَالَطَهُمْ أَزَالَهُ أَوْ قَلَّلَهُ فَخُلْطَتُهُمْ حِينَئِذٍ أَفْضَلُ مِنِ اعْتِزَالِهِمْ.

فَالْأَفْضَلُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ إِيثَارُ مَرْضَاةِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالْحَالِ، وَالِاشْتِغَالُ بِوَاجِبِ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَوَظِيفَتِهِ وَمُقْتَضَاهُ.

وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ التَّعَبُّدِ الْمُطْلَقِ، وَالْأَصْنَافُ قِبَلَهُمْ أَهْلُ التَّعَبُّدِ الْمُقَيَّدِ، فَمَتَى خَرَجَ أَحَدُهُمْ عَنِ النَّوْعِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَفَارَقَهُ يَرَى نَفْسَهُ كَأَنَّهُ قَدْ نَقَصَ وَتَرَكَ عِبَادَتَهُ، فَهُوَ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى وَجْهٍ وَاحِدٍ، وَصَاحِبُ التَّعَبُّدِ الْمُطْلَقِ لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ فِي تَعَبُّدٍ بِعَيْنِهِ يُؤْثِرُهُ عَلَى غَيْرِهِ، بَلْ غَرَضُهُ تَتَبُّعُ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى أَيْنَ كَانَتْ، فَمَدَارُ تَعَبُّدِهِ عَلَيْهَا، فَهُوَ لَا يَزَالُ مُتَنَقِّلًا فِي مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ، كُلَّمَا رُفِعَتْ لَهُ مَنْزِلَةٌ عَمِلَ عَلَى سَيْرِهِ إِلَيْهَا، وَاشْتَغَلَ بِهَا حَتَّى تَلُوحَ لَهُ مَنْزِلَةٌ أُخْرَى، فَهَذَا دَأْبُهُ فِي السَّيْرِ حَتَّى يَنْتَهِيَ سَيْرُهُ، فَإِنْ رَأَيْتَ الْعُلَمَاءَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، وَإِنْ رَأَيْتَ الْعُبَّادَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، وَإِنْ رَأَيْتَ الْمُجَاهِدِينَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، وَإِنْ رَأَيْتَ

الذَّاكِرِينَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، وَإِنْ رَأَيْتَ الْمُتَصَدِّقِينَ الْمُحْسِنِينَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، وَإِنْ رَأَيْتَ أَرْبَابَ الْجَمْعِيَّةِ وَعُكُوفِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، فَهَذَا هُوَ الْعَبْدُ الْمُطْلَقُ، الَّذِي لَمْ تَمْلِكْهُ الرُّسُومُ، وَلَمْ تُقَيِّدْهُ الْقُيُودُ، وَلَمْ يَكُنْ عَمَلُهُ عَلَى مُرَادِ نَفْسِهِ وَمَا فِيهِ لَذَّتُهَا وَرَاحَتُهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ، بَلْ هُوَ عَلَى مُرَادِ رَبِّهِ، وَلَوْ كَانَتْ رَاحَةُ نَفْسِهِ وَلَذَّتُهَا فِي سِوَاهُ.

الدرس السابع: العبادة قائمة على اليسر

عناصر الدرس

العنصر الأول: تعريف اليسر

العنصر الثاني: الأدلة من القرآن والسنة

العنصر الثالث: أقوال العلماء

العنصر الرابع: مفهوم اليسر

العنصر الخامس: من صور التيسير في العبادات

العنصر الأول: تعريف اليسر

اليُسْرُ لغة: ضد العُسْرِ. ومنه " الدِّين يُسْرٌ " أي سهلٌ سَمْحٌ قليل التشديد.

أما في الاصطلاح: تطبيق الأحكام الشرعية بصورة معتدلة كما جاءت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، من غير تشدُّد يُحرِّم الحلال، ولا تميُّع يُحلِّل الحرام.

ويدخل تحت هذا المسمى السماحة والسعة والرخصة ورفع الحرج وغيرها من المصطلحات التي تحمل المدلول نفسه.

العنصر الثاني: الأدلة من القرآن والسنة

من القرآن الكريم: قال الله تعالى

﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾[البقرة : 185].

﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُّرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة : 6].

﴿هُوَ اِجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : 78].

﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: 28]

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: 286]

من السنة النبوية: قال الرسول صلى الله عليه وسلم

«يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»

«بعثت بالحنيفية السمحة» رواه الإمام أحمد في مسنده.

«لا تشدّدوا على أنفسكم فيشدَّد عليكم فإن قوما شدّدوا على أنفسهم فشدّد عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» عن كتاب جامع الأصول.

دخل الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد يوما فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟ قالوا: حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال صلى الله عليه وسلم: لا، حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقطع» رواه البخاري والنسائي.

ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم يوما على زوجه عائشة وعندها الحولاء بنت تويت، وكانت تذكر من عبادتها وأنها لا تنام الليل، فردها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المنهج الوسط قائلا: «مه، عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتى تملوا، وكان أحب الدين إلى الله ما داوم عليه صاحبه» رواه البخاري ومسلم.

عن عائشة – رضي الله عنها –: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «سدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا؛ فإنه لا يُدخِل أحدًا الجنةَ عملُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتغمدَني اللهُ بمغفرة ورحمة».

وفي رواية عن عائشة، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أن لن يُدخِل أحدَكم عملُه الجنةَ، وأنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى الله أدومُها وإن قلَّ».

ويقول عليه الصلاة والسلام: «عليكم بما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا».

العنصر الثالث: أقوال العلماء

قال النووي:

"معنى «سدِّدوا وقاربوا»: اطلبوا السدادَ، واعملوا به، وإن عجَزتم عنه، فقاربوه؛ أي: اقربوا منه، والسداد: الصوابُ، وهو بين الإفراط والتفريط، فلا تَغلوا ولا تُقصِّروا".

قال ابن حجر:

"والحاصل أنه أمَرَ بالجد في العبادة، والإبلاغ بها إلى حد النهاية، لكن بقيد ما لا تقع معه المشقةُ المُفضية إلى السآمة والملال."

قال الشاطبي:

"المشقة ليس للمكلَّف أن يقصِدَها في التكليف نظرًا إلى عِظَم أجرها، وله أن يقصِد العمل الذي يعظُم أجرُه؛ لعظم مشقَّته من حيث هو عمل"، وقال أيضًا: "فإذا كان قصدُ المكلف إيقاعَ المشقة، فقد خالف قصد الشارع؛ من حيث إن الشارعَ لا يقصِد بالتكليف نفس المشقة، وكل قصد يخالف قصد الشارع باطلٌ؛ فالقصدُ إلى المشقة باطلٌ، فهو إذًا من قبيل ما يُنهَى عنه، وما يُنهى عنه لا ثوابَ فيه."

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :-

"ومما ينبغي أن يُعرَف أن الله ليس رضاه أو محبتُه في مجرد عذاب النَّفس وحملِها على المشاقِّ، حتى يكون العملُ كلما كان أشقَّ كان أفضل، كما يحسب كثيرٌ من الجُهال أن الأجرَ على قدر المشقَّة في كل شيء، لا، ولكن الأجر على قدر منفعةِ العمل، ومصلحته، وفائدته، وعلى قدر طاعة أمر الله ورسوله، فأيُّ العملين كان أحسن، وصاحبه أطوع

وأتبع – كان أفضلَ؛ فإن الأعمالَ لا تتفاضل بالكثرة، وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل."

قال ابن عبد البر:

" قوله في هذا الحديث: «سدِّدوا وقاربوا» ، يفسِّر قوله: «استقيموا ولن تُحصوا» ، يقول: سدِّدوا وقاربوا، فلن تبلغوا حقيقةَ البِر، ولن تُطيقوا الإحاطةَ في الأعمال، ولكن قاربوا؛ فإنكم إن قاربتُم ورفَقتم، كان أجدرَ أن تدوموا على عملكم."

قال ابن حجر: "«وقاربوا»؛ أي: لا تُفْرِطوا، فتُجهدوا أنفسَكم في العبادة؛ لئلا يُفضي بكم ذلك إلى الملال، فتتركوا العملَ، فتُفَرِّطوا."

العنصر الرابع: مفهوم اليسر

يظهر مبدأ اليسر والمسامحة جليًّا في العبادات أكثر من غيرها من أمور الدين، حيث إنها سلوك ظاهر، فجميع العبادات قائمة على هذا المبدأ الذي خصّ الله تعالى به هذه الأمة من غيرها من الأمم، المفروضة منها والنوافل.

إن الدين الإسلامي بمجمله قائم على اليسر ورفع الحرج ابتداء من العقيدة وانتهاء بأصغر أمور الأحكام والعبادات بشكل يتوافق مع الفطرة الإنسانية وتتقبله النفس البشرية من غير تكلف أو تعنت ، وهذا ما أشار إليه الله تعالى في مواطن كثيرة من كتابه العزيز منها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : 78] وقوله أيضًا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] وقوله عز وجل : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾[النساء: 28].

وتلت هذه الآيات الكريمات السنة النبوية بأحاديث كثيرة تحمل معاني اليسر في أمور الدين وعدم التنطع والتشدد في العبادات والطاعات، فقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى أن أهم ما تميزت به رسالة الإسلام عن غيرها من الرسالات السماوية السابقة هي السماحة واليسر كما في قوله صلى الله عليه وسلم: إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة.

والمتمعن في السيرة النبوية يجد أن سلوك النبي صلى الله عليه وسلم وتعامله مع صحابته مبني على منهج التيسير والسماحة، والشواهد أكثر من أن تعد أو تحصى، ولكن نكتفي بسرد حادثة وقعت لأحد الصحابة وجاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، يريد مخرجًا لها وهو صحابي فقير لا يملك قوت يومه، وهي تغني عن جميع ما كان يقع للصحابة من إحراجات.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت، قال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا، فقال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال: لا، قال: فمكث النبي صلى الله عليه وسلم فبينا نحن على ذلك أتي النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيها تمر – والعرق: المكتل – قال: أين السائل؟ فقال: أنا، قال: خذها فتصدَّق بها فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها – يريد الحرتين – أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه ثم قال: أطعمه أهلك.

العنصر الخامس: من صور التيسير في العبادات

1. الرخصة

الرخصة في اللغة: التيسير والتسهيل، أو اليسر والسهولة، والرخص ضد الغلاء، وفلان يترخص في الأمر إذا لم يستقص، ويتعدى بالهمزة والتضعيف.

أما في الاصطلاح فقد عرفها البيضاوي بأنها: "الحكم الثابت على خلاف الدليل لعذر."

والرخصة قاعدة عظيمة من قواعد هذا الدين حيث تشمل جميع أمور الدين وجوانبه في العقيدة والعبادة والمعاملة والعقوبات وغيرها. وهي منحة وصدقة من الله – تعالى – لعباده، كما قال عليه الصلاة والسلام: صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته.

ويمكن وصف الرخصة بأنها من أهم معالم اليسر في هذا الدين، وأن الله – تعالى – إنما أجازها ليخفف عن عباده وطأة بعض التكاليف، ويعذرهم عما لا يطيقونه، لذلك يستحب إتيان هذه المنحة والعمل بها في مواضع الجواز، يقول عليه الصلاة والسلام: إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

ويمكن الإشارة إلى بعض هذه الرخص التي بيّنها الله ورسوله عليه الصلاة والسلام للأمة من خلال الأمثلة الآتية:

أ – **الرخصة في السفر**: وذلك بقصر الصلاة الرباعية المفروضة، والجمع بين صلاتي الظهر والعصر وكذا المغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير. وكذلك الإفطار فيه، لقوله تعالى :﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184].

وقوله صلى الله عليه وسلم: ليس من البر الصوم في السفر.

ب –**التيمم بالتراب**: عند عدم وجود الماء أو عند تعذر استعماله، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6].

ج – **الرخصة في الحيض والنفاس**، وهما عذران للصلاة والصيام ومسّ المصحف والطواف بالنسبة للمرأة.

2. الأصل في الأشياء الإباحة

ومن أهم المرتكزات التي قام عليها منهج التيسير في الإسلام أن الأصل في الأشياء حلها وإباحتها، وليس منعها وحرمتها، فكل ما خلق في هذا الكون مسخرٌ للإنسان ومهيأ للاستمتاع به، ما لم يكن فيه نهي صريح، يقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: 13].

وبما أن الشارع قد بيّن ذلك فلا يحق لأحد أن يحرم هذا المباح ، فإنه بذلك يدخل في نطاق التنطع والتعنت المنهي عنه ، ومن أجل ذلك جاء التحذير الرباني بالنهي عن تحريم الأمور المباحة أو تحليل المحرم ، فقد كان هذا السؤال سببًا لإخراج الناس من الدين الحق ، وإحلال غضب الله عليهم ، كما حدث لبعض الأمم السابقة ، يقول الله تعالى : ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ *قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: 101-102].

ويقول عليه الصلاة والسلام: إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته.

3. الخطأ والنسيان والإكراه

تظهر سماحة الإسلام في توافقه مع الفطرة الإنسانية السليمة التي خلقها في نفس الإنسان، ومن هذه الفطرة الخطأ الذي يقع فيه الإنسان في معظم أحواله من غير قصد، وكذلك ما يعتريه من النسيان، وهو ما ذكره الله – تعالى – على لسان المؤمنين الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286] قال الله تعالى: " قد فعلت."

وأما الاستكراه فهو أمر خارج عن إرادة الإنسان، لا يستطيع كل إنسان أن يتحمل ما قد يتعرض له من أذى أو ضرر أو تهديد بالقتل أو قطع عضو وغيره ، فحينها رخص له الشارع أن يتنازل عن بعض مفاهيمه الدينية تخلصًا من الحال التي يعانيها ، والعذاب الواقع عليه كما حصل لعمار بن ياسر رضي الله عنهما ، حينما ذكر آلهة قريش بخير ونال من رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت وطأة التعذيب ، وقتل أبواه أمام عينيه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «كيف تجد قلبك؟» ، قال : مطمئنًا بالإيمان ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: « إن عادوا فعد ».

وما ذلك إلا رحمة بالعباد وتيسيرًا عليهم، لأن الخطأ والنسيان من الأمور الفطرية التي لا يسلم منها أحد، وأما الإكراه فلأن قوة التحمل تختلف من إنسان لآخر، من أجل ذلك جاء هذا التشريع الرباني بهذه الصورة الميسرة التي تناسب أطباع الناس وفطرهم.

4. النهي عن الغلو في الدين

إن دين الله – تعالى – يحمل في تطبيقه السعادة والعدالة للناس، ولا يحمل الشقاء والعذاب، فالإنسان الذي يأخذ هذا الدين كما أراده الله – تعالى – باعتدال وفهم ووعي ينال السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة، وأما الذي يشادّ فيه ويتشدد في غير موضع التشدد، ويحرم الحلال والمباح، فإنه ينال الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة، يشير إلى هذا المعنى

ربنا – عز وجل – في أول سورة طه قائلا: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 1-2].

ويقول عليه الصلاة والسلام: هلك المتنطعون قالها ثلاثاً.

والمتنطعون كما فسره النووي رحمه الله: المتعمقون المشدِّدون في غير موضع التشديد.

فقبول الطاعة غير مرتبط بمدى التعب والنصب ، لأن الله – تعالى – لا يحب أن يطاع بغير ما أنزله على عباده ، فالذي يعبد الله ليلًا ونهارًا بشكل يخالف منهج الله – تعالى – لا تقبل عبادته مهما أتعب نفسه وأرهقها ، والله – عز وجل – في غنى عن أعمال العباد ، ولكنه – جل شأنه – يفرح عندما يرى عباده على دينه القويم ، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة قال : من هذه؟ قالت : فلانة ، تذكر من صلاتها قال : «مهْ عليكم بما تطيقون فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تَملوا » وكان أحب الدِّين إليه ما داوم صاحبه عليه.

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه: دخل النبي صلى الله عليه وسلم فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا حُلُّوه ليُصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد.

5. التوبة:

والتوبة من الأسس المتينة التي يرتكز عليها منهج التيسير في الإسلام، وهي سبب من أسباب ثبات المؤمن وبقائه على دين الله تعالى، حيث تزيل عن كاهله هموم المعاصي وأثقال المخالفات، وتدفعه للعمل دومًا نحو الأفضل، يقول الله تعالى :﴿ **قُلْ يا عبادي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾. [الزمر: 53].

والتوبة سبب لمحبة الله – تعالى – للإنسان عندما ينيب إليه بعد أن عصاه، ويندم على فعله :﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: 222].

ويؤيد هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: لله أشد فرحا بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها.

وينبغي ألا يستكثر الإنسان على ربه بالتوبة إذا عصى، أو يصارع نفسه ويدخلها في مستنقعات الوسواس الخناس إذا اقترفت يداه ذنبًا أو وقعت عينه على معصية، بأن يقول: إن الله – تعالى – لن يغفر لي بعد هذا، فهذه معصية كبرى، وعقيدة فاسدة، وسوء ظن بالله جل شأنه، وهو باب من أبواب الشيطان لئلا يعود إلى ربه مرة أخرى ويعمل الأعمال الصالحة، يقول عليه الصلاة والسلام: والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم.

ويقول عليه الصلاة والسلام: كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

ومن يسر هذا الدين وسعته ورحمته أن الله – تعالى – جعل الأعمال الصالحة مكفرات لخطايا بني آدم، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[الفرقان: 70].

وقوله عليه الصلاة والسلام لأبي ذر رضي الله عنه: اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.

الدرس الثامن: مكفرات الذنوب.

عناصر الدرس

تمهيد

العنصر الأول: أدلة القائلين إن الصالحات تُكفِّر الصغائر لا الكبائر.

العنصر الثاني: أدلةالقائلين إن الصالحات تُكفِّر الصغائر والكبائر.

العنصر الثالث: أدلة القائلين بأن الحسنات الكبيرة التي قوي فيها الإخلاص قد تكفر الكبائر.

العنصر الرابع: الترجيح بين الأقوال.

العنصر الخامس: أسباب محو الذنوب

تمهيد:

اتفق العلماء على أن صغائر الذنوب تكفر بالصلوات الخمس والصوم والحج وأداء الفرائض وأعمال البر، وهذا كله قبل الموت، فإن مات صاحب الكبيرة فمصيره إلى الله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، فإن عذبه فبجرمه، وإن عفا عنه فهو أهل العفو وأهل المغفرة، وإن تاب قبل الموت وقبل حضوره ومعاينته وندم واعتقد أن لا يعود واستغفر ووجل كان كمن لم يذنب، وبهذا كله الآثار الصحاح عن السلف قد جاءت وعليه جماعة علماء المسلمين.

ولكن اختلف أهل العلم في الأعمال الصالحة مثل أداء الصلوات الخمس، وصوم رمضان، والحج والعمرة، وسائر أعمال البر التي وعد الله من أداها بتكفير ذنوبه وخطاياه هل تدخل في تلك المغفرة كبائر الذنوب التي لم يتب صاحبها منها، وذلك على ثلاثة أقوال كالآتي:

1. القول الأول :الأعمال الصالحة تكفر صغائر الذنوب، وأما الكبائر فلا تُكَفَّر بمجرد فعل الأعمال الصالحة، بل لا بد من التوبة بشروطها حتى تُكَفَّر، وإلى هذا ذهب أكثر أهل العلم .
2. القول الثاني :الأعمال الصالحة تكفر الذنوب مطلقاً الصغائر والكبائر، وهو قول ابن المنذر ' وابن حزم' وجماعة من أهل العلم المتقدمين، ومن المتأخرين قال به الشيخ الألباني ' والشيخ أحمد البنا .
3. القول الثالث :الحسنات الكبيرة التي قوي فيها الإخلاص قد تكفر الكبائر، ولكن ليس ذلك بالأمر اللازم المطرد، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، والحافظ ابن حجر العسقلاني.

العنصر الأول: أدلة القائلين إن الصالحات تُكفِّر الصغائر لا الكبائر.

استدل أصحاب القول الأول القائلون إن الصالحات تُكفِّر الصغائر لا الكبائر بالآتي:

1. في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر »، فهذا الحديث واضح الدلالة على أن الكبائر لا تكفرها هذه الفرائض بل لابد من توبة نصوح.

2. عن عثمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله».

○ قال قتادة: "إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر وذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا الكبائر وسددوا وأبشروا.

○ وقال القاضي عياض: هذا المذكور في الحديث من غفران الذنوب ما لم تؤت كبيرة هو مذهب أهل السنة وأن الكبائر إنما تكفرها التوبة أو رحمة الله تعالى وفضله والله أعلم.

○ وقال ابن العربي: "الخطايا المحكوم بمغفرتها هي الصغائر دون الكبائر لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ما اجتنبت الكبائر.

3. إن الله أمر العباد بالتوبة، وجعل من لم يتب ظالماً، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض، والفرائض لا تؤدى إلا بنية وقصد، ولو كانت الكبائر تقع مكفرة بالوضوء والصلاة وأداء بقية أركان الإسلام، لم يحتج إلى التوبة، وهذا باطل بالإجماع، فثبت أن الكبائر لا بد لها من التوبة.

4. لو كفرت الكبائر بفعل الفرائض، لم يبق لأحدٍ ذنبٌ يدخل به النار إذا أتى بالفرائض، هذا ما ذكره ابن عبد البر في كتابه التمهيد، وحكى إجماع المسلمين على ذلك .

5. يخشى أن يغتر بهذا القول جاهل فينهمك في الموبقات اتكالاً على أنها تكفرها الصلوات دون الندم والاستغفار والتوبة .

6. قال الإمام النووي رحمه الله: " أجمع العلماء على أن المعاصي الموجبة للحدود لا تسقط حدودها بالصلاة "

7. وقال ابن بطال رحمه الله: " الصغائر هي من اللمم التي وعد الله مغفرتها لمجتنب الكبائر وأما الكبائر: فأهل السنة مجمعون على أنه لا بد فيها من التوبة والندم والإقلاع واعتقاد أن لا عودة فيها ."

وقد أجمع المسلمون أن التوبة على المذنب فرض والفروض لا يصح أداء شيء منها إلا بقصد ونية واعتقاد أن لا عودة، فأما أن يصلي وهو غير ذاكر لما ارتكب من الكبائر ولا نادم على ذلك فمحال وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الندم توبة»، وقال صلى الله عليه وسلم «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر »، وفي رواية: « ما لم تغش الكبائر».

○ وقال أبو الحسن المالكي: "والمراد بالذنوب التي يكفرها القيام الصغائر التي بينه وبين ربه، وأما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة."

○ وقال الزرقاني: "ثم هذا مخصوص بالصغائر كما صرح به في أحاديث أخر، قال الحافظ ظاهره يعم الكبائر والصغائر، لكن العلماء خصوه بالصغائر لوروده مقيداً باستثناء الكبائر في غير هذه الرواية، وهو في حق من له كبائر وصغائر، فمن ليس له إلا صغائر كفرت عنه، ومن ليس له إلا الكبائر خفف عنه منها بمقدار ما لصاحب الصغائر، ومن ليس له صغائر ولا كبائر يزاد في حسناته بنظير ذلك ."

○ وقال الأحناف: "والكبيرة لا يكفرها إلا التوبة، وأما الصغائر فلها مكفرات كالصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان والحج والاستغفار واجتناب الكبائر على أحد القولين، والأصح أن الحج المبرور لا يكفر الكبيرة، والمغفور هو الصغائر إن وجدت وإلا

رجونا أن يغفر من الكبائر، فيكاد أن يكون – أي من قال بتكفير الكبائر من غير توبة – رأياً في مقابلة النص لعدم من سبقه في هذا القول بل الاتفاق على عدم مكفرية الكبائر بشيء من الحسنات."

○ وقال الجويني من الشافعية: "وكل ما يرد في الأخبار من تكفير الذنوب، فهو عندي محمولٌ على الصغائر، دون الموبقات."

○ وقال ابن مفلح: "وتكفر طهارة وصلاة ورمضان وعرفة وعاشوراء الصغائر فقط، قال شيخنا وكذا حج، لأن الصلاة ورمضان أعظم منه" ...

○ وقال الزركشي: "وأما ما ورد من إطلاق غفران الذنوب جميعها على فعل بعض الطاعات من غير توبة لحديث « الوضوء يكفر الذنوب » وحديث «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »، «ومن صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه »، «ومن حج فلم يرفث و لم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » ونحوه، فحملوه على الصغائر، فإن الكبائر لا يكفرها غير التوبة."

العنصر الثاني: أدلة القائلين إن الصالحات تُكفِّر الصغائر والكبائر,

- واستدل أصحاب القول الثاني القائلون إن الصالحات تُكفِّر الصغائر والكبائر بالآتي:

1. قال تعالى:﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: 114] قال المباركفوري: "وتمسك بظاهر هذه الآية الذين قالوا إن الحسنات تكفر كل سيئة كبيرة كانت أو صغيرة ."

a. قال الشوكاني: "إن الحسنات يذهبن السيئات، أي إن الحسنات على العموم ومن جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم، وقيل المراد بالسيئات الصغائر، ومعنى يذهبن السيئات يكفرنها حتى كأنها لم تكن."

ونوقش:

إن المرجئة هم من تمسكوا بظاهر هذه الآية، وقالوا: إن الحسنات تكفر كل سيئة كبيرة كانت أو صغيرة، وحمل الجمهور هذا المطلق على المقيد في الحديث الصحيح: « إن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر »، فقال طائفة: إن اجتنبت الكبائر كانت الحسنات كفارة لما عدا الكبائر من الذنوب وإن لم تجتنب الكبائر لم تحط الحسنات شيئاً.

2. عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقي من درنه؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا.«

a. قال الشيخ الألباني: " هذا الحصر ينافي الاستفهام التقريري في الحديث الذي قبله «هل يبقى من درنه شيء؟ » كما هو ظاهر، فإنه لا يمكن تفسيره على أن المراد به الدرن الصغير فلا يبقى منه شيء وأما الدرن الكبير فيبقى كله كما هو! فإن تفسير الحديث بهذا ضرب له في الصدر كما لا يخفى. فالذي يبدو لي والله أعلم أن الله تعالى زاد في تفضله على عباده فوعد المصلين منهم بأن يغفر لهم الذنوب جميعاً وفيها الكبائر بعد أن كانت المغفرة خاصة بالصغائر ولعله مما يؤيد هذا قوله تعالى:﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [الفرقان: 70] ، فإذا كانت الصغائر تكفر بمجرد اجتناب الكبائر فالفضل الإلهي يقتضي أن تكون للصلاة وغيرها من العبادات فضيلة أخرى تتميز بها على فضيلة اجتناب الكبائر ولا يبدو أن ذلك يكون إلا بأن تكفر الكبائر والله تعالى أعلم؛ ولكن ينبغي على المصلين أن لا يغتروا فإن الفضيلة المذكورة لا شك أنه لا يستحقها إلا من أقام الصلاة وأتمها وأحسن أداءها".

ونوقش:

أ. ظاهره أن المراد بالخطايا في الحديث ما هو أعمّ من الصغيرة والكبيرة، لكن قال ابن بطال: يؤخذ من الحديث أن المراد الصغائر خاصة، لأنه شبه الخطايا بالدرن، والدرن صغير بالنسبة إلى ما هو أكبر منه من القروح والخراجات .

ب. قال القرطبي: " ظاهر الحديث أن الصلوات الخمس تستقل بتكفير جميع الذنوب وهو مشكل لكن روى مسلم قبله حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً: «الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر» فعلى هذا المقيد يحمل ما أطلق في غيره."

3. قال سلمان الفارسي في الوضوء: "إنه يكفر الجراحات الصغار والمشي إلى المسجد يكفر أكبر من ذلك والصلاة تكفر أكبر من ذلك."

العنصر الثالث: أدلة القائلين بأن الحسنات الكبيرة التي قوي فيها الإخلاص قد تكفر الكبائر.

استدل القائلون بأن الحسنات الكبيرة التي قوي فيها الإخلاص قد تكفر الكبائر بما يأتي:

1. قال تعالى :﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾.

وجه الدلالة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إنه لا يجوز أن يراد بالآية إن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقي الذنوب كلها، لأن الكافر والفاسق حين يريد أن يتوب ليس متقياً، فإن كان قبول العمل مشروطاً بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له امتنع قبول التوبة. بخلاف ما إذا اشترط

التقوى في العمل فإن التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة وهو حين شروعه في التوبة منتقل من الشر إلى الخير لم يخلص من الذنب بل هو متق في حال تخلصه منه، وأيضاً فلو أتى الإنسان بأعمال البر وهو مصر على كبيرة ثم تاب لوجب أن تسقط سيئاته بالتوبة وتقبل منه تلك الحسنات وهو حين أتى بها كان فاسقاً، وأيضاً فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل وغصب وقذف وكذلك الذمي إذا أسلم قبل إسلامه مع بقاء مظالم العباد عليه، فلو كان العمل لا يقبل إلا ممن لا كبيرة عليه لم يصح إسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم، بل يكون مع إسلامه مخلداً وقد كان الناس مسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات فيقبل إسلامهم ويتوبون إلى الله سبحانه من التبعات، ولا نعرف أحداً من المسلمين جاءه ذمي يسلم فقال له لا يصح إسلامك حتى لا يكون عليك ذنب وكذلك سائر أعمال البر من الصلاة والزكاة ".

2. عن بلال بن يسار بن زيد مولى النبي صلى الله عليه وسلم قال حدثني أبي عن جدي أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول «من قال أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فر من الزحف .»

3. عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أتاني آت من ربي، فأخبرني أو قال: بشرني أنه: من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة " قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق .»

وجه الدلالة:

"إنه قد جاء التصريح في كثير من الأحاديث بأن المغفرة قد تكون مع الكبائر."

4. عن أبي أمامة، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، ونحن قعود معه، إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً، فأقمه علي، فسكت عنه

رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أعاد فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً، فأقمه علي، فسكت عنه، وأقيمت الصلاة، فلما انصرف نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: أبو أمامة: فاتبع الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف، واتبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر ما يرد على الرجل، فلحق الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً، فأقمه علي، قال أبو أمامة: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟» قال: بلى، يا رسول الله قال: «ثم شهدت الصلاة معنا» فقال: نعم، يا رسول الله قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإن الله قد غفر لك حدك أو قال: ذنبك.«

وجه الدلالة

إن الله عز وجل أطلع نبيه على أن هذا الرجل قد غفر الله له كبيرته بسبب صلاته، وذلك لا يعني أن كل الكبائر من أي مرتكب لها تكفرها صلاتهم مع جماعة المسلمين، وإنما يمكن أن يقع ذلك لبعض العاصين غير هذا الرجل الوارد في الحديث .

وفي كلام ابن القيم رحمه الله ما يشير إلى أن الرجل إنما غفر الله له بسبب توبته الصادقة، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم أن صلاته مع جماعة المسلمين كانت سبب مغفرة ذنبه لأنه صدق التوبة مع الله، وليس بسبب الصلاة المجردة.

قال ابن القيم رحمه الله: " قالت طائفة: بل غفر الله له بتوبته، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وعلى هذا فمن تاب من الذنب قبل القدرة عليه سقطت عنه حقوق الله تعالى كما تسقط عن المحارب، وهذا هو الصواب."

5. عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها فغفر لها »،

وفي رواية: « إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها، فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به.«

وجه الدلالة:

قال ابن القيم:" ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر وملء الماء في خفها و لم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر ثم تواضعها لهذا المخلوق الذى جرت عادة الناس بضربه فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها فهكذا الأعمال والعمال عند الله والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً والله المستعان."

وقال ابن تيمية: " فلا يقال في كل بغى سقت كلباً غفر لها، لأن هذه البغي قد حصل لها من الصدق والإخلاص والرحمة بخلق الله ما عادل إثم البغى وزاد عليه ما أوجب المغفرة، والمغفرة تحصل بما يحصل في القلب من الإيمان الذي يعلم الله وحده مقداره وصفته وهذا يفتح باب العمل ويجتهد به العبد أن يأتي بهذه الأعمال وأمثالها من موجبات الرحمة وعزائم المغفرة ويكون مع ذلك بين الخوف والرجاء."

ثم يقول " كذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق يغفر له، قال الله تعالى :﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [الحج: 37]، فإذا عرف أن

الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب وما في القلوب يتفاضل لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق و لم يضرب بعضه ببعض ."

6. يقول شيخ الاسلام: "فالمحو والتكفير يقع بما يتقبل من الأعمال وأكثر الناس يقصرون في الحسنات حتى في نفس صلاتهم فالسعيد منهم من يكتب له نصفها وهم يفعلون السيئات كثيراً فلهذا يكفر بما يقبل من الصلوات الخمس شيء وبما يقبل من الجمعة شيء وبما يقبل من صيام رمضان شيء آخر وكذلك سائر الأعمال، وليس كل حسنة تمحو كل سيئة بل المحو يكون للصغائر تارة ويكون للكبائر تارة باعتبار الموازنة والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر."

مناقشة هذا الاستدلال

قال ابن عبد البر: "وقال بعض المنتمين إلى العلم من أهل عصرنا: إن الكبائر والصغائر يكفرها الصلاة والطهارة واحتج بظاهر حديث الصنابحي هذا وبمثله من الآثار وبقوله صلى الله عليه وسلم: «فما ترون ذلك يبقى من ذنوبه »، وما أشبه ذلك، وهذا جهل بيِّن وموافقة للمرجئة فيما ذهبوا إليه من ذلك، وكيف يجوز لذي لب أن يحمل هذه الآثار على عمومها، وهو يسمع قول الله عز وجل :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ وقوله تبارك وتعالى :﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، ولو كانت الطهارة والصلاة وأعمال البر مكفرة للكبائر والمتطهر المصلي غير ذاكر لذنبه الموبق ولا قاصد إليه ولا حضره في حينه ذلك أنه نادم عليه ولا خطرت خطيئته المحيطة به بباله لما كان لأمر الله عز وجل بالتوبة معنى، ولكان كل من توضأ وصلى يُشهَدُ له بالجنة

بأثر سلامه من الصلاة وإن ارتكب قبلها ما شاء من الموبقات الكبائر وهذا لا يقوله أحد ممن له فهم صحيح.

العنصر الرابع: الترجيح بين الأقوال.

وبعد هذا العرض لكلام أهل العلم في هذه المسألة يظهر رجحان قول من قال إن الأعمال الصالحة تكفر صغائر الذنوب دون كبائرها وأنه لا بد من التوبة بشروطها من الكبيرة حتى تكفر.

أسباب الترجيح:

1. إن الخطر كل الخطر يكمن في حال أولئك الذين يسرفون في المعاصي، ويصرون على الذنوب، ويقتحمون كل خطيئة، ثم يقولون: سيغفر الله لنا بحسناتنا!، وما أدراهم أن الله تقبل منهم حسناتهم! وما أدراهم أن الله لا يحبط تلك الحسنات بتلك السيئات! بل وما أدراهم أن الله عز وجل سيختم لهم بخاتمة حسنة إذا هم أصروا على ذنوبهم.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبة له: " أيها الناس من ألَّمَ بذنبٍ فليستغفرِ اللَهَ وليتبْ، فإن عاَدَ فليستغفرِ اللَّهَ وليتبْ، فإن عاد فليستغفر الله وليتب، فإنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال، وإن الهلاك كل الهلاك في الإصرار عليها."

2. ليس معنى هذه المكفرات وما في معناها أن يُقدِمَ الإنسان على المعاصي والشهوات، ويصرَّ عليها، بحجة أنه يعمل هذه الحسنات فتكفرها، فهذا لا يقوله أحد، ولا تؤدي إليه هذه النصوص، وإنما المسلم مطالب بأصل الشرع بعمل الأوامر واجتناب النواهي، وإذا قارف معصية فعليه المبادرة إلى التوبة النصوح بالإقلاع عنها، والتأسف على

ما وقع منه، وعقد العزم بعدم العودة إليها، فهذه مع ما يحصل للمسلم من الخير مثل الوضوء والصلاة وفعل الحسنات تكاثر السيئات وتكفرها إذا اجتنب الكبائر ."

يقول ابن القيم: " وكاغترار بعضهم على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة، حتى يقول بعضهم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر، ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر، فرمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويا على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر، فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها هذا محال، على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء يكفر لجميع ذنوب العام على عمومه ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير، فإذا لم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الاصرار وتعاونا على عموم التكفير، كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر، مع أنه سبحانه قد قال :﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [الفرقان: 70]، فعلم أن جعل الشيء سبباً للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما. "

العنصر الخامس: أسباب محو الذنوب

عُقُوبَةَ الذُّنُوبِ تَزُولُ عَنْ الْعَبْدِ بِنَحْوِ عَشَرَةِ أَسْبَابٍ.

أَحَدُهَا: التَّوْبَةُ: وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ تَعَالَى: **{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}** [الزمر: 53] وَقَالَ تَعَالَى: **{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}**[التوبة: 104]. وَقَالَ تَعَالَى: **{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}** [الشوري: 25] وَأَمْثَالُ ذَلِكَ "

السَّبَبُ الثَّانِي " الِاسْتِغْفَارُ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: {إذَا أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَذْنَبْت ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ غَفَرْت لِعَبْدِي ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ أَيْ رَبِّ أَذْنَبْت ذَنْبًا آخَرَ. فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ غَفَرْت لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ قَالَ ذَلِكَ: فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ} وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: {لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ} .

الفرق بين السبب الأول والثاني:

وَقَدْ يُقَالُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الِاسْتِغْفَارُ هُوَ مَعَ التَّوْبَةِ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ {مَا أَصَرَّ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ} وَقَدْ يُقَالُ: بَلْ **الِاسْتِغْفَارُ بِدُونِ التَّوْبَةِ مُمْكِنٌ** وَاقِعٌ وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ فَإِنَّ هَذَا الِاسْتِغْفَارَ إذَا كَانَ مَعَ التَّوْبَةِ مِمَّا يُحْكَمُ بِهِ عَامٌّ فِي كُلِّ تَائِبٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَ التَّوْبَةِ فَيَكُونُ فِي حَقِّ بَعْضِ الْمُسْتَغْفِرِينَ الَّذِينَ قَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ عِنْدَ الِاسْتِغْفَارِ مِنْ الْخَشْيَةِ وَالْإِنَابَةِ مَا يَمْحُو الذُّنُوبَ كَمَا فِي حَدِيثِ الْبِطَاقَةِ بِأَنَّ قَوْلَ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ثَقُلَتْ بِتِلْكَ السَّيِّئَاتِ؛ لَمَّا قَالَهَا بِنَوْعٍ مِنْ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ الَّذِي يَمْحُو

السَّيِّئَاتِ وَكَمَا غَفَرَ لِلْبَغِيِّ بِسَقْيِ الْكَلْبِ لِمَا حَصَلَ فِي قَلْبِهَا إِذْ ذَاكَ مِنْ الْإِيمَانِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ. "

السَّبَبُ الثَّالِثُ ": الْحَسَنَاتُ الْمَاحِيَةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}** [هود: 114] وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اُجْتُنِبَتْ الْكَبَائِرُ} وَقَالَ: {مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ} وَقَالَ: {مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ} وَقَالَ {مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ}. وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَأَمْثَالُهَا فِي الصِّحَاحِ.

السَّبَبُ الرَّابِعُ – الدَّافِعُ لِلْعِقَابِ –: دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِ مِثْلُ صَلَاتِهِمْ عَلَى جِنَازَتِهِ فَعَنْ عَائِشَةَ وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: {مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ} . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: {مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمْ اللَّهُ فِيهِ} رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ. وَهَذَا دُعَاءٌ لَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ. فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُحْمَلَ الْمَغْفِرَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ الَّذِي اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ وَكُفِّرَتْ عَنْهُ الصَّغَائِرُ وَحْدَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مَغْفُورٌ لَهُ عِنْدَ الْمُتَنَازِعِينَ. فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ لِلْمَيِّتِ.

السَّبَبُ الْخَامِسُ: مَا يُعْمَلُ لِلْمَيِّتِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ؟ كَالصَّدَقَةِ وَنَحْوِهَا فَإِنَّ هَذَا يَنْتَفِعُ بِهِ بِنُصُوصِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ وَاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ وَكَذَلِكَ الْعِتْقُ وَالْحَجُّ. بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ} وَثَبَتَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ صَوْمِ النَّذْرِ مِنْ وُجُوهٍ أُخْرَى وَلَا يَجُوزُ.

السَّبَبُ السَّادِسُ: شَفَاعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرُهُ فِي أَهْلِ الذُّنُوبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَدْ تَوَاتَرَتْ عَنْهُ أَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: {شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي} . وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {خُيِّرْت بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ؛ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ فَاخْتَرْت الشَّفَاعَةَ لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْثَرُ؛ أَتَرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لَا. وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ المتلوثين الْخَطَّائِينَ} .

السَّبَبُ السَّابِعُ: الْمَصَائِبُ الَّتِي يُكَفِّرُ اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا فِي الدُّنْيَا كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: {مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ؛ وَلَا نَصَبٍ؛ وَلَا هَمٍّ؛ وَلَا حَزَنٍ؛ وَلَا غَمٍّ؛ وَلَا أَذًى - حَتَّى الشَّوْكَةُ يَشَاكُهَا - إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ} .

السَّبَبُ الثَّامِنُ: مَا يَحْصُلُ فِي الْقَبْرِ مِنْ الْفِتْنَةِ وَالضَّغْطَةِ وَالرَّوْعَةِ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يُكَفَّرُ بِهِ الْخَطَايَا.

السَّبَبُ التَّاسِعُ: أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَرْبُهَا وَشَدَائِدُهَا.

الدرس التاسع: مراتب العبودية

عناصر الدرس

تمهيد

العنصر الأول: عِبَادَةُ القلب

العنصر الثاني: عِبَادَةُ اللِّسَانِ

العنصر الثالث: عِبَادَةُ الجوارح

تمهيد

رَحَى الْعُبُودِيَّةِ تَدُورُ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ قَاعِدَةً، مَنْ كَمَّلَهَا كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْعُبُودِيَّةِ.

وَبَيَانُهَا:

1- أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ مُنْقَسِمَةٌ عَلَى الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ، وَعَلَى كُلٍّ مِنْهَا عُبُودِيَّةٌ تَخُصُّهُ.
2- وَالْأَحْكَامُ الَّتِي لِلْعُبُودِيَّةِ خَمْسَةٌ: وَاجِبٌ، وَمُسْتَحَبٌّ، وَحَرَامٌ، وَمَكْرُوهٌ، وَمُبَاحٌ، وَهِيَ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ.

العنصر الأول: عِبَادَةُ القلب

(وَاجِبُ الْقَلْبِ):

فَالْمُتَّفَقُ عَلَى وُجُوبِهِ: كَالْإِخْلَاصِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالْبِرِّ، وَالْإِنَابَةِ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَالتَّصْدِيقِ الْجَازِمِ، وَالنِّيَّةِ فِي الْعِبَادَةِ، وَالصِّدْقُ. وَاتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى وُجُوبِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ.

وَأَمَّا الْمُخْتَلَفُ فِيهِ:

ومنه: الرِّضَا، فَإِنَّ فِي وُجُوبِهِ قَوْلَيْنِ:

فَمَنْ أَوْجَبَهُ قَالَ: السُّخْطُ حَرَامٌ، وَلَا خَلَاصَ عَنْهُ إِلَّا بِالرِّضَا، وَمَا لَا خَلَاصَ عَنِ الْحَرَامِ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

وَاحْتَجُّوا بِأَثَرِ " مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائِي، وَلَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي، فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَايَ."

وَمَنْ قَالَ: هُوَ مُسْتَحَبٌّ، قَالَ: لَمْ يَجِئِ الْأَمْرُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، بِخِلَافِ الصَّبْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ.

وَمِنْ هَذَا أَيْضًا اخْتِلَافُهُمْ فِي الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ، وَفِيهِ قَوْلَانِ لِلْفُقَهَاءِ.

وَأَمَّا الْمُحَرَّمَاتُ الَّتِي عَلى القلبِ: فَالْكِبْرُ، وَالرِّيَاءُ، وَالْعُجْبُ، وَالْحَسَدُ، وَالْغَفْلَةُ، وَالنِّفَاقُ، وَهِيَ نَوْعَانِ :كُفْرٌ، وَمَعْصِيَةٌ:

فَالْكُفْرُ: كَالشَّكِّ، وَالنِّفَاقِ، وَالشِّرْكِ، وَتَوَابِعِهَا.

وَالْمَعْصِيَةُ نَوْعَانِ: كَبَائِرُ، وَصَغَائِرُ.

فَالْكَبَائِرُ :كَالرِّيَاءِ، وَالْعُجْبِ، وَالْكِبْرِ، وَالْفَخْرِ، وَالْخُيَلَاءِ، وَالْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بِأَذَى الْمُسْلِمِينَ، وَالشَّمَاتَةِ بِمُصِيبَتِهِمْ، وَمَحَبَّةِ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِيهِمْ، وَحَسَدِهِمْ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَتَمَنِّي زَوَالِ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَتَوَابِعِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنَ الزِّنَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ، وَلَا صَلَاحَ لِلْقَلْبِ وَلَا لِلْجَسَدِ إِلَّا بِاجْتِنَابِهَا، وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا، وَإِلَّا فَهُوَ قَلْبٌ فَاسِدٌ، وَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ فَسَدَ الْبَدَنُ.

وَهَذِهِ الْآفَاتُ إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنَ الْجَهْلِ بِعُبُودِيَّةِ الْقَلْبِ، وَتَرْكِ الْقِيَامِ بِهَا.

وَمِنَ الصَّغَائِرِ أَيْضًا: شَهْوَةُ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَمَنِّيهَا، وَتَفَاوُتُ دَرَجَاتِ الشَّهْوَةِ فِي الْكِبَرِ وَالصِّغَرِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ دَرَجَاتِ الْمُشْتَهَى، فَشَهْوَةُ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ كُفْرٌ، وَشَهْوَةُ الْبِدْعَةِ فِسْقٌ، وَشَهْوَةُ الْكَبَائِرِ مَعْصِيَةٌ، فَإِنْ تَرَكَهَا لِلَّهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا أُثِيبَ، وَإِنْ تَرَكَهَا عَجْزًا بَعْدَ بَذْلِهِ مَقْدُورِهِ فِي تَحْصِيلِهَا اسْتَحَقَّ عُقُوبَةَ الْفَاعِلِ، لِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَتَهُ فِي أَحْكَامِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَإِنْ لَمْ يَنْزِلْ مَنْزِلَتَهُ فِي أَحْكَامِ الشَّرْعِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "

«إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ، قَالُوا: هَذَا الْقَاتِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ " «فَنَزَّلَهُ مَنْزِلَةَ الْقَاتِلِ، لِحِرْصِهِ عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ، فِي الْإِثْمِ دُونَ الْحُكْمِ، وَلَهُ نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَقَدْ عُلِمَ بِهَذَا مُسْتَحَبُّ الْقَلْبِ وَمُبَاحُهُ.

العنصر الثاني: عِبَادَةُ اللِّسَانِ

وَأَمَّا عُبُودِيَّاتُ اللِّسَانِ الْخَمْسُ،

فَوَاجِبُهَا: النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتِلَاوَةُ مَا يَلْزَمُهُ تِلَاوَتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ مَا تَتَوَقَّفُ صِحَّةُ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ، وَتَلَفُّظُهُ بِالْأَذْكَارِ الْوَاجِبَةِ فِي الصَّلَاةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا وَرَسُولُهُ، كَمَا أَمَرَ بِالتَّسْبِيحِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَأَمَرَ بِقَوْلِ " رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ " بَعْدَ الِاعْتِدَالِ، وَأَمَرَ بِالتَّشَهُّدِ، وَأَمَرَ بِالتَّكْبِيرِ.

وَمِنْ وَاجِبِهِ رَدُّ السَّلَامِ، وَفِي ابْتِدَائِهِ قَوْلَانِ.

وَمِنْ وَاجِبِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْلِيمُ الْجَاهِلِ، وَإِرْشَادُ الضَّالِّ، وَأَدَاءُ الشَّهَادَةِ الْمُتَعَيِّنَةِ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ.

وَأَمَّا مُسْتَحَبُّهُ: فَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ، وَدَوَامُ ذِكْرِ اللَّهِ، وَالْمُذَاكَرَةُ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَتَوَابِعُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا مُحَرَّمُهُ: فَهُوَ النُّطْقُ بِكُلِّ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، كَالنُّطْقِ بِالْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَالدُّعَاءِ إِلَيْهَا، وَتَحْسِينِهَا وَتَقْوِيَتِهَا، وَكَالْقَذْفِ وَسَبِّ الْمُسْلِمِ وَأَذَاهُ بِكُلِّ قَوْلٍ، وَالْكَذِبِ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ، وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَهُوَ أَشَدُّهَا تَحْرِيمًا.

وَمَكْرُوهُهُ: التَّكَلُّمُ بِمَا تَرْكُهُ خَيْرٌ مِنَ الْكَلَامِ بِهِ، مَعَ عَدَمِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ العلماء هَلْ فِي حَقِّهِ كَلَامٌ مُبَاحٌ، مُتَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ،

ذَكَرَهُمَا ابْنُ الْمُنْذِرِ وَغَيْرُهُ، أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَا يَخْلُو كُلُّ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي حَقِّهِ شَيْءٌ لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ.

وَاحْتَجُّوا بِالْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ، وَهُوَ " «كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ." «

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُ يُكْتَبُ عَلَيْهِ كَلَامُهُ كُلُّهُ، وَلَا يُكْتَبُ إِلَّا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ هَذَا الْكَلَامُ مُبَاحٌ، لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ، كَمَا فِي حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ.

قَالُوا: لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكَلَامِ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُبَاحِ.

وَالتَّحْقِيقُ :أَنَّ حَرَكَةَ اللِّسَانِ بِالْكَلَامِ لَا تَكُونُ مُتَسَاوِيَةَ الطَّرَفَيْنِ، بَلْ إِمَّا رَاجِحَةً وَإِمَّا مَرْجُوحَةً، لِأَنَّ لِلِّسَانِ شَأْنًا لَيْسَ لِسَائِرِ الْجَوَارِحِ، وَإِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، تَقُولُ :اتَّقِ اللَّهَ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنَّ اِعْوَجَجْتَ اِعْوَجَجْنَا، وَأَكْثَرُ مَا يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَكُلُّ مَا يَتَلَفَّظُ بِهِ اللِّسَانُ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّا يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْ لَا، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ الرَّاجِحُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ الْمَرْجُوحُ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَرَكَاتِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا يَنْتَفِعُ بِتَحْرِيكِهَا فِي الْمُبَاحِ الْمُسْتَوِي الطَّرَفَيْنِ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الرَّاحَةِ وَالْمَنْفَعَةِ، فَأُبِيحَ لَهُ اسْتِعْمَالُهَا فِيمَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ لَهُ، وَلَا مَضَرَّةَ عَلَيْهِ فِيهِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا حَرَكَةُ اللِّسَانِ بِمَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَضَرَّةً، فَتَأَمَّلْهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ يَتَحَرَّكُ بِمَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مُبَاحَةٌ مُسْتَوِيَةُ الطَّرَفَيْنِ، فَيَكُونُ حُكْمُ حَرَكَتِهِ حُكْمَ ذَلِكَ الْفِعْلِ.

قِيلَ: حَرَكَتُهُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا رَاجِحَةٌ، وَعِنْدَ عَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَرْجُوحَةٌ لَا تُفِيدُهُ، فَتَكُونُ عَلَيْهِ لَا لَهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ الْفِعْلُ مُتَسَاوِيَ الطَّرَفَيْنِ، كَانَتْ حَرَكَةُ اللِّسَانِ الَّتِي هِيَ الْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ كَذَلِكَ، إِذِ الْوَسَائِلُ تَابِعَةٌ لِلْمَقْصُودِ فِي الْحُكْمِ.

قِيلَ: لَا يَلْزَمُ ذَلِكَ، فَقَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ مُبَاحًا، بَلْ وَاجِبًا، وَوَسِيلَتُهُ مَكْرُوهَةٌ كَالْوَفَاءِ بِالطَّاعَةِ الْمَنْذُورَةِ هُوَ وَاجِبٌ، مَعَ أَنَّ وَسِيلَتَهُ وَهُوَ النَّذْرُ مَكْرُوهٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ الْحَلِفُ الْمَكْرُوهُ مَرْجُوحٌ، مَعَ وُجُوبِ الْوَفَاءِ بِهِ أَوِ الْكَفَّارَةِ، وَكَذَلِكَ سُؤَالُ الْخَلْقِ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَكْرُوهٌ، وَيُبَاحُ لَهُ الِانْتِفَاعُ بِمَا أَخْرَجَتْهُ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا، فَقَدْ تَكُونُ الْوَسِيلَةُ مُتَضَمِّنَةً مَفْسَدَةً تُكْرَهُ أَوْ تُحَرَّمُ لِأَجْلِهَا، وَمَا جُعِلَتْ وَسِيلَةً إِلَيْهِ لَيْسَ بِحَرَامٍ وَلَا مَكْرُوهٍ.

العنصر الثالث: عِبَادَةُ الجوارح

وَأَمَّا الْعُبُودِيَّاتُ الْخَمْسُ عَلَى الْجَوَارِحِ فَعَلَى خَمْسٍ وَعِشْرِينَ مَرْتَبَةً أَيْضًا، إِذِ الْحَوَاسُّ خَمْسَةٌ، وَعَلَى كُلِّ حَاسَّةٍ خَمْسُ عُبُودِيَاتٍ.

وَأَمَّا تَعَلُّقُ الْعُبُودِيَّاتِ الْخَمْسِ بحاسة السمع

يجب عليه: وُجُوبُ الْإِنْصَاتِ وَالِاسْتِمَاعِ لِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِ، مِنَ اسْتِمَاعِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَفُرُوضِهِمَا، وَكَذَلِكَ اسْتِمَاعُ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ إِذَا جَهَرَ بِهَا الْإِمَامُ، وَاسْتِمَاعُ الْخُطْبَةِ لِلْجُمْعَةِ فِي أَصَحِّ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ.

وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ اسْتِمَاعُ الْكُفْرِ وَالْبِدَعِ، إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ فِي اسْتِمَاعِهِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنْ رَدِّهِ، أَوِ الشَّهَادَةِ عَلَى قَائِلِهِ، أَوْ زِيَادَةِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ بِمَعْرِفَةِ ضِدِّهِمَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَاسْتِمَاعِ أَسْرَارِ مَنْ يَهْرُبُ عَنْكَ بِسِرِّهِ، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يُطْلِعَكَ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يَكُنْ مُتَضَمِّنًا لَحِقَّ لِلَّهِ يَجِبُ الْقِيَامُ بِهِ، أَوْ لِأَذَى مُسْلِمٍ يَتَعَيَّنُ نُصْحُهُ، وَتَحْذِيرُهُ مِنْهُ.، كَذَلِكَ اسْتِمَاعُ أَصْوَاتِ النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ الَّتِي تُخْشَى الْفِتْنَةُ بِأَصْوَاتِهِنَّ، إِذَا لَمْ تَدْعُ حاجة، وَنَظِيرُ هَذَا نَظْرَةُ الْفُجَاءَةِ لَا تَحْرُمُ عَلَى النَّاظِرِ، وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّظْرَةُ الثَّانِيَةُ إِذَا تَعَمَّدَهَا.

وَأَمَّا السَّمْعُ الْمُسْتَحَبُّ فَكَاسْتِمَاعِ الْمُسْتَحَبِّ مِنَ الْعِلْمِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ اللَّهِ، وَاسْتِمَاعِ كُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَلَيْسَ بِفَرْضٍ.

وَالْمَكْرُوهُ عَكْسُهُ، وَهُوَ اسْتِمَاعُ كُلِّ مَا يُكْرَهُ وَلَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ.

والْمُبَاحُ: ظَاهِرٌ.

وَأَمَّا تَعَلُّقُ الْعُبُودِيَّاتِ الْخَمْسِ بحاسة النَّظَرُ

فالْوَاجِبُ: فَالنَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ وَكُتُبِ الْعِلْمِ عِنْدَ تَعَيُّنِ تَعَلُّمِ الْوَاجِبِ مِنْهَا، وَالنَّظَرُ إِذَا تَعَيَّنَ لِتَمْيِيزِ الْحَلَالِ مِنَ الْحَرَامِ فِي الْأَعْيَانِ الَّتِي يَأْكُلُهَا أَوْ يُنْفِقُهَا أَوْ يَسْتَمْتِعُ بِهَا، وَالْأَمَانَاتِ الَّتِي يُؤَدِّيهَا إِلَى أَرْبَابِهَا لِيُمَيِّزَ بَيْنَهَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالنَّظَرُ الْحَرَامُ: النَّظَرُ إِلَى الْأَجْنَبِيَّاتِ بِشَهْوَةٍ مُطْلَقًا، وَبِغَيْرِهَا إِلَّا لِحَاجَةٍ، كَنَظَرِ الْخَاطِبِ، وَالْمُسْتَامِ وَالْمَعَامِلِ، وَالشَّاهِدِ، وَالْحَاكِمِ، وَالطَّبِيبِ، وَذِي الْمَحْرَمِ.

وَمِنَ النَّظَرِ الْحَرَامِ: النَّظَرُ إِلَى الْعَوْرَاتِ، وَهِيَ قِسْمَانِ:

عَوْرَةٌ وَرَاءَ الثِّيَابِ، وَعَوْرَةٌ وَرَاءَ الْأَبْوَابِ.

وَلَوْ نَظَرَ فِي الْعَوْرَةِ الَّتِي وَرَاءَ الْأَبْوَابِ فَرَمَاهُ صَاحِبُ الْعَوْرَةِ فَفَقَأَ عَيْنَهُ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَذَهَبَتْ هَدْرًا بِنَصِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ، وَإِنْ ضَعَفَّهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ لِكَوْنِهِ لَمْ يَبْلُغْهُ النَّصُّ، أَوْ تَأَوَّلَهُ.

وَهَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاظِرِ سَبَبٌ يُبَاحُ النَّظَرُ لِأَجْلِهِ، كَعَوْرَةٍ لَهُ هُنَاكَ يَنْظُرُهَا، أَوْ رِيبَةٍ هُوَ مَأْمُورٌ أَوْ مَأْذُونٌ لَهُ فِي الِاطِّلَاعِ عَلَيْهَا

وَالْمُسْتَحَبُّ: النَّظَرُ فِي كُتُبِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ الَّتِي يَزْدَادُ بِهَا الرَّجُلُ إِيمَانًا وَعِلْمًا، وَالنَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ، وَوُجُوهِ الْعُلَمَاءِ الصَّالِحِينَ وَالْوَالِدَيْنِ، وَالنَّظَرُ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمَشْهُودَةِ لِيُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى تَوْحِيدِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

والْمَكْرُوهُ: فُضُولُ النَّظَرِ الَّذِي لَا مَصْلَحَةَ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُ فُضُولًا كَمَا لِلِّسَانِ فُضُولًا، وَكَمْ قَادَ فُضُولُهَا إِلَى فُضُولٍ عَزَّ التَّخَلُّصُ مِنْهَا، وَأَعْيَى دَوَاؤُهَا، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كَانُوا يَكْرَهُونَ فُضُولَ النَّظَرِ، كَمَا يَكْرَهُونَ فُضُولَ الْكَلَامِ.

وَالْمُبَاحُ: النَّظَرُ الَّذِي لَا مَضَرَّةَ فِيهِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ وَلَا مَنْفَعَةَ..

وَأَمَّا تَعَلُّقُ الْعُبُودِيَّاتِ الْخَمْسِ بحاسة الذَّوْقُ:

فالْوَاجِبُ: فَتَنَاوُلُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ إِلَيْهِ وَخَوْفِ الْمَوْتِ، فَإِنْ تَرَكَهُ حَتَّى مَاتَ، مَاتَ عَاصِيًا قَاتِلًا لِنَفْسِهِ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَطَاوُسٌ: مَنِ اضْطُرَّ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ فَلَمْ يَأْكُلْ حَتَّى مَاتَ، دَخَلَ النَّارَ.

وَمِنْ هَذَا تَنَاوُلُ الدَّوَاءِ إِذَا تَيَقَّنَ النَّجَاةَ بِهِ مِنَ الْهَلَاكِ، عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ، وَإِنْ ظَنَّ الشِّفَاءَ بِهِ، فَهَلْ هُوَ مُسْتَحَبٌّ مُبَاحٌ، أَوِ الْأَفْضَلُ تَرْكُهُ؟ فِيهِ نِزَاعٌ مَعْرُوفٌ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَالذَّوْقُ الْحَرَامُ: كَذَوْقِ الْخَمْرِ، وَالسُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، وَالذَّوْقِ الْمَمْنُوعِ مِنْهُ لِلصَّوْمِ الْوَاجِبِ.

وَأَمَّا الْمَكْرُوهُ: فَكَذَوْقِ الْمُشْتَبِهَاتِ، وَالْأَكْلِ فَوْقَ الْحَاجَةِ، وَذَوْقِ طَعَامِ الْفُجَاءَةِ، وَهُوَ الطَّعَامُ الَّذِي تَفَجَّأَ آكِلُهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَدْعُوَكَ إِلَيْهِ، وَكَأَكْلِ أَطْعِمَةِ الْمُرَائِينَ فِي الْوَلَائِمِ وَالدَّعَوَاتِ وَنَحْوِهَا، وَفِي السُّنَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» " نَهَى عَنْ طَعَامِ الْمُتَبَارِينَ».

وَالذَّوْقُ الْمُسْتَحَبُّ: أَكْلُ مَا يُعِينُكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِمَّا أَذِنَ اللَّهُ فِيهِ، وَالْأَكْلُ مَعَ الضَّيْفِ لِيَطِيبَ لَهُ الْأَكْلُ، فَيَنَالَ مِنْهُ غَرَضَهُ، وَالْأَكْلُ مِنْ طَعَامِ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الْوَاجِبِ إِجَابَتُهَا أَوِ الْمُسْتَحَبِّ.

وَقَدْ أَوْجَبَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ الْأَكْلَ مِنَ الْوَلِيمَةِ الْوَاجِبِ إِجَابَتُهَا لِلْأَمْرِ بِهِ عَنِ الشَّارِعِ.

وَالذَّوْقُ الْمُبَاحُ: مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِثْمٌ وَلَا رُجْحَانٌ.

وَأَمَّا تَعَلُّقُ الْعُبُودِيَّاتِ الْخَمْسِ بِحَاسَّةِ الشَّمِّ:

فَالشَّمُّ الْوَاجِبُ: كُلُّ شَمٍّ تَعَيَّنَ طَرِيقًا لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، كَالشَّمِّ الَّذِي تُعْلَمُ بِهِ هَذِهِ الْعَيْنُ هَلْ هِيَ خَبِيثَةٌ أَوْ طَيِّبَةٌ؟ وَهَلْ هِيَ سُمٌّ قَاتِلٌ أَوْ لَا مَضَرَّةَ فِيهِ؟ أَوْ يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ مَا يَمْلِكُ الِانْتِفَاعَ بِهِ، وَمَا لَا يَمْلِكُ؟ وَمِنْ هَذَا شَمُّ الْمُقَوِّمِ، وَرَبِّ الْخِبْرَةِ عِنْدَ الْحُكْمِ بِالتَّقْوِيمِ، وَشَمُّ الْعَبِيدِ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الشَّمُّ الْحَرَامُ: فَالتَّعَمُّدُ لِشَمِّ الطِّيبِ فِي الْإِحْرَامِ، وَشَمِّ الطِّيبِ الْمَغْصُوبِ وَالْمَسْرُوقِ، وَتَعَمُّدُ شَمِّ الطِّيبِ مِنَ النِّسَاءِ الْأَجْنَبِيَّاتِ خَشْيَةَ الِافْتِتَانِ بِمَا وَرَاءَهُ.

وَأَمَّا الشَّمُّ الْمُسْتَحَبُّ: فَشَمُّ مَا يُعِينُكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَيُقَوِّي الْحَوَاسَّ، وَيَبْسُطُ النَّفْسَ لِلْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَمِنْ هَذَا هَدِيَّةُ الطِّيبِ وَالرَّيْحَانِ إِذَا أُهْدِيَتْ لَكَ، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدَّهُ، فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ، خَفِيفُ الْمَحْمَلِ. «

وَأَمَّا الشَّمُّ الْمَكْرُوهُ: كَشَمِّ طِيَبِ الظَّلَمَةِ، وَأَصْحَابِ الشُّبُهَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الشَّمُّ الْمُبَاحُ: مَا لَا مَنْعَ فِيهِ مِنَ اللَّهِ وَلَا تَبِعَةَ، وَلَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ، وَلَا تَعَلُّقُ لَهُ بِالشَّرْعِ.

وَأَمَّا تَعَلُّقُ هَذِهِ الْخَمْسَةِ بِحَاسَّةِ اللَّمْسِ:

فَاللَّمْسُ الْوَاجِبُ كَلَمْسِ الزَّوْجَةِ حِينَ يَجِبُ جِمَاعُهَا، وَالْأَمَةِ الْوَاجِبِ إِعْفَافُهَا.

وَاللمس الْحَرَامُ: لَمْسُ مَا لَا يَحِلُّ مِنَ الْأَجْنَبِيَّاتِ.

وَاللمس الْمُسْتَحَبُّ: إِذَا كَانَ فِيهِ غَضُّ بَصَرِهِ، وَكَفُّ نَفْسِهِ عَنِ الْحَرَامِ، وَإِعْفَافُ أَهْلِهِ.

وَاللمس الْمَكْرُوهُ: لَمْسُ الزَّوْجَةِ فِي الْإِحْرَامِ لِلَذَّةٍ، وَكَذَلِكَ فِي الِاعْتِكَافِ، وَفِي الصِّيَامِ إِذَا لَمْ يَأْمَنْ عَلَى نَفْسِهِ.

وَمِنْ هَذَا لَمْسُ بَدَنِ الْمَيِّتِ لِغَيْرِ غَاسِلِهِ لِأَنَّ بَدَنَهُ قَدْ صَارَ بِمَنْزِلَةِ عَوْرَةِ الْحَيِّ تَكْرِيمًا لَهُ، وَلِهَذَا يُسْتَحَبُّ سَتْرُهُ عَنِ الْعُيُونِ وَتَغْسِيلُهُ فِي قَمِيصِهِ فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، وَلَمْسُ فَخْذِ الرَّجُلِ إِذَا قُلْنَا هِيَ عَوْرَةٌ.

واللمس الْمُبَاحُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَفْسَدَةٌ وَلَا مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ.

وَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ أَيْضًا مُرَتَّبَةٌ عَلَى الْبَطْشِ بِالْيَدِ، وَالْمَشْيِ بِالرِّجْلِ، وَأَمْثِلَتُهَا لَا تَخْفَى.

فَالتَّكَسُّبُ الْمَقْدُورُ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ وَاجِبٌ، وَفِي وُجُوبِهِ لِقَضَاءِ دَيْنِهِ خِلَافٌ، وَالصَّحِيحُ وُجُوبُهُ لِيُمَكِّنَهُ مِنْ أَدَاءِ دَيْنِهِ، وَلَا يَجِبُ لِإِخْرَاجِ الزَّكَاةِ، وَفِي وُجُوبِهِ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ نَظَرٌ، وَالْأَقْوَى فِي الدَّلِيلِ وَجُوبُهُ لِدُخُولِهِ فِي الِاسْتِطَاعَةِ وَتَمَكُّنِهِ بِذَلِكَ مِنْ أَدَاءِ النُّسُكِ، وَالْمَشْهُورُ عَدَمُ وُجُوبِهِ.

وَمِنَ الْبَطْشِ الْوَاجِبِ: إِعَانَةُ الْمُضْطَرِّ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ، وَمُبَاشَرَةُ الْوُضُوءِ وَالتَّيَمُّمِ.

وَمن البطش الْحَرَامُ: كَقَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا، وَنَهْبُ الْمَالِ الْمَعْصُومِ، وَضَرْبُ مِنْ لَا يَحِلُّ ضَرْبُهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَكَأَنْوَاعِ اللَّعِبِ الْمُحَرَّمِ بِالنَّصِّ كَالنَّرْدِ، أَوْ مَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْهُ عِنْدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَالشِّطْرَنْجِ، أَوْ مِثْلِهِ عِنْدَ فُقَهَاءِ الْحَدِيث كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ، أَوْ دُونَهُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَنَحْوِ كِتَابَةِ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِلسُّنَّةِ تَصْنِيفًا أَوْ نَسْخًا، إِلَّا مَقْرُونًا بِرَدِّهَا وَنَقْضِهَا، وَكِتَابَةِ الزُّورِ وَالظُّلْمِ، وَالْحُكْمِ الْجَائِرِ، وَالْقَذْفِ وَالتَّشْبِيبِ بِالنِّسَاءِ الْأَجَانِبِ، وَكِتَابَةِ مَا فِيهِ مَضَرَّةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ، وَلَاسِيَّمَا إِنْ كَسَبْتَ عَلَيْهِ مَالًا {فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: 79] وَكَذَلِكَ كِتَابَةُ الْمُفْتِي عَلَى الْفَتْوَى مَا يُخَالِفُ حُكْمَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا، فَالْإِثْمُ مَوْضُوعٌ عَنْهُ.

وَأَمَّا البطش الْمَكْرُوهُ: فَكَالْعَبَثِ وَاللَّعِبِ الَّذِي لَيْسَ بِحَرَامٍ، وَكِتَابَةِ مَا لَا فَائِدَةَ فِي كِتَابَتِهِ، وَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالبطش الْمُسْتَحَبُّ: كِتَابَةُ كُلِّ مَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ فِي الدِّينِ، أَوْ مَصْلَحَةٌ لِمُسْلِمٍ، وَالْإِحْسَانُ بِيَدِهِ بِأَنْ يَعِينَ صَانِعًا، أَوْ يَصْنَعَ لِأَخْرَقَ، أَوْ يُفْرِغَ مِنْ دَلْوِهِ فِي دَلْوِ الْمُسْتَسْقِي، أَوْ يَحْمِلَ لَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، أَوْ يُمْسِكَهَا حَتَّى يُحْمَلَ عَلَيْهَا، أَوْ يُعَاوِنَهُ بِيَدِهِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْمَشْيُ الْوَاجِبُ: فَالْمَشْيُ إِلَى الْجُمْعَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ لِبِضْعَةٍ وَعِشْرِينَ دَلِيلًا مَذْكُورَةٍ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَالْمَشْيُ حَوْلَ الْبَيْتِ لِلطَّوَافِ الْوَاجِبِ، وَالْمَشْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ بِنَفْسِهِ أَوْ بِمَرْكُوبِهِ، وَالْمَشْيُ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ، وَالْمَشْيُ إِلَى صِلَةِ رَحِمِهِ، وَبِرِّ وَالِدَيْهِ، وَالْمَشْيُ إِلَى مَجَالِسِ الْعِلْمِ الْوَاجِبِ طَلَبُهُ وَتَعَلُّمُهُ، وَالْمَشْيُ إِلَى الْحَجِّ إِذَا قَرُبَتِ الْمَسَافَةُ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ فِيهِ ضَرَرٌ.

وَالمشي الْحَرَامُ: الْمَشْيُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَهُوَ مِنْ رَجِلِ الشَّيْطَانِ، قَالَ تَعَالَى **{وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ}**[الإسراء :64]،قَالَ مُقَاتِلٌ: اسْتَعِنْ عَلَيْهِمْ بِرُكْبَانِ جُنْدِكَ وَمُشَاتِهِمْ، فَكُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ.

وَكَذَلِكَ تَتَعَلَّقُ هَذِهِ الْأَحْكَامُ الْخَمْسُ بِالرُّكُوبِ أَيْضًا.

فَوَاجِبُهُ فِي الرُّكُوبِ: فِي الْغَزْوِ، وَالْجِهَادِ، وَالْحَجِّ الْوَاجِبِ.

وَمُسْتَحَبُّهُ فِي الرُّكُوبِ الْمُسْتَحَبِّ مِنْ ذَلِكَ، وَلِطَلَبِ الْعِلْمِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَفِي الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ نِزَاعٌ هَلِ الرُّكُوبُ فِيهِ أَفْضَلُ، أَمْ عَلَى الْأَرْضِ؟ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الرُّكُوبَ أَفْضَلُ إِذَا تَضَمَّنَ مَصْلَحَةً مِنْ تَعْلِيمٍ لِلْمَنَاسِكِ، وَاقْتِدَاءٍ بِهِ، وَكَانَ أَعْوَنَ عَلَى الدُّعَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ ضَرَرٌ عَلَى الدَّابَّةِ.

وَحَرَامُهُ: الرُّكُوبُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَمَكْرُوهُهُ: الرُّكُوبُ لِلَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَكُلُّ مَا تَرْكُهُ خَيْرٌ مِنْ فِعْلِهِ.

وَمُبَاحُهُ: الرُّكُوبُ لِمَا لَمْ يَتَضَمَّنْ فَوْتَ أَجْرٍ، وَلَا تَحْصِيلَ وِزْرٍ.

فَهَذِهِ خَمْسُونَ مَرْتَبَةً عَلَى عَشَرَةِ أَشْيَاءَ: الْقَلْبُ، وَاللِّسَانُ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ، وَالْأَنْفُ، وَالْفَمُ، وَالْيَدُ، وَالرِّجْلُ، وَالْفَرْجُ، وَالِاسْتِوَاءُ عَلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ.

الدرس العاشر: أسباب تعظيم الأجر والسيئات

عناصر الدرس

العنصر الأول: تعظيم الحسنات

العنصر الثاني: تعظيم السيئات

العنصر الأول: تعظيم الحسنات

مضاعفة الحسنة إلى عشر أمر لازم لكل حسنة، وأن ما عدا ذلك من درجات المضاعفة العليا مرتبط بتحقق أسباب، والله سبحانه حكيم عليم؛ "فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته".

وهذه الأسباب التي علق تعظيم الأجر -بشقيه: المضاعفة والتكثير- بها مستفاده من النصوص، ويمكن استجلاؤها منها من خلال تتبعها وتأملها.

والمقصود في هذا المطلب النظر في الأسباب التي تسبب تعظيم ما اقترنت به من الحسنات والتي لولاها لانتفى ذلك التكثير.

أ - حسن إسلام العامل وفضله وتقدمه في الإيمان والإخلاص.

وقد دل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: "إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله".

قال ابن رجب: "وقد جاءت الأحاديث بفضل من حسن إسلامه وأنه تضاعف حسناته وتكفر سيئاته، والظاهر أن كثرة المضاعفة تكون بحسب حسن الإسلام... فالمضاعفة للحسنة بعشر أمثالها لابد منه، والزيادة على ذلك تكون بحسب إحسان الإسلام"

ويشهد لهذا الأصل المتقرر من أن فضل العبد وقوة إيمانه سبب لمضاعفة حسناته: ما خص الله سبحانه أفضل البشر بعد الأنبياء إيمانا وأبرهم قلوبا بمزيد فضله؛ فضاعف حسناتهم وكثر أجورهم بما لا يدركهم فيه أحد بعدهم.

وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: "لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه"

فدل هذا الحديث على أن "العمل القليل من أحد أصحابه يفضل العمل الكثير من غيرهم؛ وذلك لكمال إخلاصهم وصادق إيمانهم"، بالإضافة إلى ما خصهم به سبحانه من شرف الصحبة.

ومن هذا الباب أيضا: ما خص الله به أمهات المؤمنين من مضاعفة الحسنات.

يقول سبحانه: **{ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما}** [الأحزاب: 31].

قال ابن جرير في تفسير الآية: "يعطها الله ثواب عملها مثلي ثواب عمل غيرهن من سائر نساء الناس"

وقال ابن رجب تعليقا على الآية: "فدل على أن من عظمت منزلته ودرجته عند الله فإن عمله يضاعف له أجره"

ومما ينبغي أن يشار إليه في سياق النظر في أثر حسن الإسلام في التضعيف أن بعض أهل العلم قد مال إلى أن المضاعفة إلى سبعمائة أو أكثر إنما هي للمهاجرين، والمضاعفة إلى عشر هي للأعراب، وقد اختار هذا القول ابن جرير رحمه الله ؛ لأن هذا القول في نظره يجمع بين الأخبار الواردة في المضاعفة، واستشهد أيضا بأثر ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (نزلت هذه الآية في الأعراب: **{من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها}** [الأنعام: 160]، فقال رجل: فما للمهاجرين؟ قال ما هو أعظم من ذلك: **{إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما}** [النساء: 40] وإذا قال الله لشيء: عظيم فهو عظيم)

وما من شك أن التقدم في الإيمان والهجرة من أسباب المضاعفة.

لكن يبقى أن تخصيص المضاعفة بالمهاجرين -بحيث لا يدخل فيها غيرهم- قول لم يدل عليه دليل صريح، وترده عمومات الأحاديث الصحيحة كما مضي تفصيله، أما أثر ابن عمر السابق فضعيف

فالجمع الصحيح بين الأخبار الواردة في المضاعفة يكون بإثبات أن المضاعفة فوق العشر مرتبطة بأسباب تحقق بتحققها، والله واسع عليم.

ومما ينبغي رعايته في هذا المقام: أن أعمال القلوب -لا سيما الإخلاص- لها أثر عظيم في مضاعفة الحسنات.

ولذا فقد تقرر عند أهل العلم أن ثواب العمل يزيد بحضور القلوب وبخصوص القصد.

يقول ابن رجب رحمه الله: "وأما من أحسن عمله وأتقنه وعمله على الحضور والمراقبة، فلا ريب أنه يتضاعف بذلك أجره وثوابه في هذا العمل بخصوص على من عمل ذلك بعينه على وجه السهو الغفلة".

ويظهر هذا المعنى من وجهين:

- أولهما: أن القصد والنية أصل الأعمال؛ فترتب على هذا أن يكون التضعيف مرتبطا بها ومبنيا على مقدارها.

يقول ابن كثير عند قوله تعالى: **{والله يضاعف لمن يشاء}** [البقرة: 261]: "أي بحسب إخلاصه في عمله.

ويقول ابن القيم في تفسير الآية أيضا: "والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه... فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة".

- ثانيها: أن أعمال القلوب نفسها حسنات عظيمة مستمرة، بخلاف أعمال الجوارح التي تنقطع بانتهائها.

وفي هذا يقول ابن القيم: "أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب، وأما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها؛ وذلك لأن أعمال الجوارح لها حد تنتهي إليه وتقف عنده فيكون جزاؤها بحسب حدها، وأما أعمال القلوب فهي دائمة متصلة وإن توارى شهود العبد لها".

ب- نفع الحسنة والحاجة إليها:

وعليه فالصدقة التي تنفق وقت الحاجة الشديدة وتقع موقعها اللائق -مثلا- تضاعف أكثر مما تضاعف الصدقة التي لا تكون كذلك.

وقد استنبط أهل العلم ذلك وذكروه في تفسير قوله تعالى: **{والله يضاعف لمن يشاء}** [البقرة: 261].

قال ابن القيم: "والله يضاعف فوق ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها؛ فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب... ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه، وبحسب طيب المنفق وزكاته.

ج- صعوبة الحسنة والمشقة الحاصلة بأدائها:

يقول ابن دقيق العيد: "الأجور قد تتفاوت بحسب زيادة المشقات، لا سيما ما كان

أجره بحسب مشقته؛ إذ لمشقته دخل في الأجر".

ويستدل لهذا السبب بجملة من الأدلة، ومنها:

1- قوله عليه الصلاة والسلام لما سئل: أي الصدقة أعظم أجرا؟: "أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا وكذا، وقد كان لفلان".

قال ابن بطال في شرح الحديث: "فيه أن أعمال البر كلما صعبت كان أجرها أعظم؛ لأن الصحيح الشحيح إذا خشي الفقر وأمل الغنى صعبت عليه النفقة، وسول له الشيطان طول العمر وحلول الفقر به؛ فمن تصدق في هذه الحال فهو مؤثر لثواب الله على هوى نفسه".

2- قوله عليه الصلاة والسلام: "أعظم الناس أجرا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرا من الذي يصلي ثم ينام".

فدل الحديث على زيادة الأجر بوجود المشقة بالمشي إلى الصلاة، أو انتظارها.

3- قوله عليه الصلاة والسلام لعائشة في حجة الوداع: "انتظري، فإذا طهرت فاخرجي إلى التنعيم فأهلي، ثم ائتينا بمكان كذا، ولكنها على قدر نفقتك أو نصبك".

وقد بوب عليه البخاري بقوله: "باب أجر العمرة على قدر النصب".

وقال ابن بطال في شرح الحديث: "أفعال البر كلها الأجر فيها على قدر المشقة والنفقة".

وقال النووي: "هذا ظاهر في أن الثواب والفضل في العبادة يكثر بكثرة النصب

والنفقة، والمراد: النصب الذي لا يذمه الشرع وكذا النفقة".

وينبغي الإشارة في هذا الموضوع إلى تنبيهين:

الأول: أن المشقة في الشرع ليست مقصودة لذاتها، وليس للعبد أن يقصدها لذاتها، وإنما إذا وقعت في العبادة ضمنا وتبعا فالقيام بها مع المشقة يزيد معه الثواب ويعظم الأجر.

الثاني: المقصود بإيراد هذا الباب تقرير كون المشقة سببا لزيادة ثواب الحسنة وتكثيره بالنسبة لجنس الحسنة وأفرادها الأخرى التي خلت من المشقة، وكذا أن العبادة التي تصحبها مشقة غالبا فللمشقة اعتبار في ثبوت الأجر.

وليس المقصود تقرير أن العمل الشاق أفضل مطلقا؛ فهذا ليس بصحيح على الإطلاق؛ فقد يكون الشاق أفضل وقد يكون الأيسر أفضل؛ بل الأمر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فليس كل شديد فاضلا، ولا كل يسير مفضولا".

ويقول الحافظ ابن حجر معقبا على كلام النووي المنقول آنفا: "لكن ليس ذلك بمطرد؛ فقد يكون بعض العبادة أخف من بعض وهو أكثر فضلا وثوابا بالنسبة إلى الزمان كقيام ليلة القدر بالنسبة لقيام ليال من رمضان غيرها، وبالنسبة للمكان كصلاة ركعتين في المسجد الحرام بالنسبة لصلاة ركعات في غيره، وبالنسبة إلى شرف العبادة المالية والبدنية كصلاة الفريضة بالنسبة إلى أكثر من عدد ركعاتها أو أطول من قراءاتها ونحو ذلك من صلاة النافلة، وكدرهم من الزكاة بالنسبة إلى أكثر منه من التطوع".

د- الزمان الفاضل:

فقد دلت الأدلة على أن بعض الأزمنة الفاضلة تتضاعف فيها أجور بعض العبادات، ومن ذلك:

1- مضاعفة أجر الأعمال الصالحة في ليلة القدر، لقوله تعالى: **{ليلة القدر خير من ألف شهر}** [القدر: 3].

قال مجاهد في هذه الآية: "عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر".

وقال ابن جرير: "وأشبه الأقوال في ذلك بظاهر التنزيل قول من قال: عمل في ليلة القدر خير من عمل ألف شهر ليس فيه ليلة القدر".

وقال السعدي: "أي تعادل في فضلها ألف شهر؛ فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر خالية منها، وهذا مما تتحير فيه الألباب وتندهش له العقول؛ حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر؛ عمر رجل معمر عمرا طويلا، نيفا وثمانين سنة".

2- تكثير أجر العمرة في رمضان حتى يكون كأجر حجة مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: "فإن عمرة في رمضان تقضي حجة معي".

هـ- المكان الفاضل:

فقد دلت الأدلة على أن بعض الأمكنة والبقاع الفاضلة تضاعف فيها بعض العبادات، ومن ذلك:

1- مضاعفة الصلاة في المسجد الحرام، قوله عليه الصلاة والسلام: "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في هذا".

هذا وقد نص بعض أهل العلم على تعميم التضعيف لسائر الحسنات بمكة وليس الصلاة فقط.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: (العمل فيه [أي الحرم] أفضل، والخطيئة أعظم فيه).

ويقول مجاهد رحمه الله: (تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات).

ويقول الحسن رحمه الله: (صوم يوم بمكة بمائة ألف، وصدقة درهم بمائة ألف، وكل حبة بمائة ألف).

ويقول ابن الجوزي: "واعلم أن من فضل مكة مضاعفة الحسنات بها، والسيئات أيضا".

ويقول الزركشي: "إن التضعيف لا يختص بالصلاة؛ بل وسائر أنواع الطاعات كذلك قياسا على ما ثبت في الصلاة والنظر إلى الكعبة؛ فألحق به ما في معناه من أعمال البر".

ويقول ابن الوزير: "وصح في حسنة الحرم أنها بمائة ألف حسنة، وأن الصلاة فيه تعدل مائة ألف صلاة".

ولا يخفى أن مثل هذا الحكم يفتقر إلى حجة بينة.

و لا دليل صحيح يقتضي مضاعفة الحسنات بمكة بحد محدود.

وما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال عن حسنات الحرم: "بكل حسنة مائة ألف حسنة" فلا يصح عنه عليه الصلاة والسلام.

ومثله ما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "من أدرك رمضان بمكة فصام وقام منه ما تيسر له؛ كتب الله له مائة ألف شهر رمضان فيما سواه، وكتب الله له بكل

يوم عتق رقبة، وكل ليلة عتق رقبة، وكل يوم حملان فرس في سبيل الله، وفي كل يوم حسنة، وفي كل ليلة حسنة"، وهو ضعيف أيضا.

ولعل أرفع ما يشهد لفضل الحسنات بمكة قوله تعالى: **{إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين}** [آل عمران: 96].

فقد ذكر بعض المفسرين أن من بركته مضاعفة ثواب العبادة فيه.

قال أبو عبد الله القرطبي: "جعله الله مباركا لتضاعف العمل فيه".

والاستدلال بالآية –وإن كان محتملا– إلا أنه غير صريح، ثم إن الفضل الوارد فيها خاص بالمسجد كما هو ظاهر.

والذي يبدو أن مجموع ما جاء في فضل مكة والمسجد الحرام، مع الآثار الواردة عن السلف، تفيد أن للأعمال الصالحة في الحرم فضلا على غيرها في الجملة، دون تحديد للمضاعفة بحد معين، والله أعلم.

ويحسن أن أختم هذه المسألة بقول البخاري رحمه الله في صحيحه: "وتدعى مكة أم رحم" أي: "الرحمة تنزل بها".

2– مضاعفة أجر الصلاة بالمسجد بالنبوي؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام".

3– تكثير أجر الصلاة في مسجد قباء؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: "من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة".

العنصر الثاني: تعظيم السيئات

لقد دلت الأدلة على أن السيئة لا يضاعف إثمها، ولا تكتب على صاحبها إلا واحدة.

ومن الأدلة على ذلك:

1- قوله تعالى: **{من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون}** [الأنعام: 160].

قال الشوكاني: "{ومن جاء بالسيئة} من الأعمال السيئة {فلا يجزى إلا مثلها} من دون زيادة عليها، على قدرها في الخفة والعظم؛ فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده في النار، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات، كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرحة بأن من عمل كذا فعليه كذا، وما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب فعلينا أن نقول: يجازيه الله بمثله وإن لم نقف على حقيقة ما يجازى به، وهذا إن لم يتب، وأما إذا تاب أو غلبت حسناته سيئاته أو تغمده الله برحمته وتفضل عليه بمعرفته فلا مجازاة، وأدلة الكتاب والسنة مصرحة بهذا تصريحا لا يبقى بعده ريب لمرتاب".

2- وقوله سبحانه: **{والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها}** [يونس: 27].

3- وقوله عز وجل: **{ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون}** [القصص: 84].

4- وقوله عليه الصلاة والسلام: "ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة".

5- قوله عليه الصلاة والسلام: "قال الله عز وجل: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرا".

6- وفي الحديث القدسي: "ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة".

7- وفي الحديث القدسي الآخر: "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر".

فتحصل من هذه النصوص وغيرها أن السيئة لا تضاعف، وإنما هي بين عفو الله أو العقوبة بمثلها، وهذا من رحمة الله سبحانه وعدله.

لكن بعض أهل العلم استثنى من هذا الأصل مسألتين:

الأولى: وقوع المعصية في الحرم المكي.

فقد نص جماعة من أهل العلم على أن السيئة بمكة مضاعفة.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: (ما لي ولبلد تضاعف فيه السيئات كما تضاعف الحسنات).

ويقول مجاهد: (تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات).

وسئل الإمام أحمد: بلغك في شيء من الحديث أن السيئة تكتب بأكثر من واحدة؟ قال: "لا؛ ما سمعنا؛ إلا بمكة لتعظيم البلد"، وقال إسحاق بن راهويه كما قال.

وقد رأى بعض الحنابلة أن ظاهر هذه الرواية أن المضاعفة في الكم -أي العدد، وعليه فتكون السيئات بمكة لها حكم مخصوص من عموم النصوص الدالة على عدم تضعيف السيئات.

والمخصص: أثر ابن عباس رضي الله عنهما؛ فإنه في حكم المرفوع؛ إذ مثله لا يقال بالرأي.

أما جمهور العلماء؛ فعلى أن السيئة لا يضاعف إثمها لا في مكة ولا في غيرها، وإنما السيئات في مكة تغلظ وتعظم لحرمة البلد، وليس يتضاعف إثمها.

قال ابن حجر: "والجمهور على التعميم [أي بعدم التضعيف] في الأزمنة والأمكنة، لكن قد يتفاوت بالعظم".

فعن مجاهد قال: (رأيت عبد الله بن عمرو بن العاص بعرفة ومنزله في الحل ومصلاه في الحرم، فقيل له: لم تفعل هذا؟ فقال: لأن العمل فيه أفضل، والخطيئة أعظم فيه).

وقال ابن رجب: "وكان جماعة من الصحابة يتقون سكنى الحرم خشية ارتكاب الذنوب فيه، منهم ابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، وكذلك كان عمر بن عبد العزيز يفعل".

والذي يبدو -والله تعالى أعلم- أن قول الجمهور أقرب إلى الصواب؛ لما يأتي:

1- عموم الأدلة الدالة على أن السيئات إنما تكتب بواحدة ولا تضاعف، و لم يصح دليل على استثناء الحرم من ذلك.

وأثر ابن عباس لم يثبت -كما سبق.

2- أنه يمكن حمل الآثار الواردة عن السلف على ما يوافق عمومات الكتاب والسنة، ولا يخفى أن ذلك أولى من حملها على ما يخالفها.

وذلك أن يحمل كلامهم -رحمهم الله- على تغليظ السيئة في الحرم وأن الأمر فيها أشد؛ بمعنى أن السيئة الواقعة في الحرم أعظم وأغلظ بالنسبة لجنس هذه السيئة، وهذا التغليظ سببه انتهاك حرمة الحرم.

وهذا الذي عبر عنه طائفة من العلماء بالمضاعفة في الكيف لا الكم، وهو ما حمل شيخ الإسلام ابن تيمية كلام الإمام أحمد عليه.

وليس هذا المعنى من المضاعفة التي تعني أن يعاقب على السيئة عقوبة سيئتين أو أكثر، كما هو الشأن في مضاعفة الحسنات وإنما هو تعظيم وتغليظ؛ فكما أن السيئات تتفاوت أجناسها غلظا وخفة؛ فكذلك الجنس الواحد منها يتفاوت أفراده غلظا وخفة بحسب ما يقترن بها من أحوال، كزمان فاضل أو مكان فاضل؛ وعليه فالسيئة في الأشهر الحرم أعظم منها في غيرها، والسيئة بمكة أعظم منها في غيرها وهكذا.

يقول شيخ الإسلام أبو العباس: "المعاصي في الأيام المعظمة والأمكنة المعظمة تغلظ معصيتها وعقابها بقدر فضيلة الزمان والمكان".

وقد بين ابن القيم مسألة مضاعفة السيئات بمكة بعبارة حسنة حيث قال: "ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه [أي في الحرم] لا كمياتها؛ فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها، وصغيرة جزاؤها مثلها؛ فالسيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض؛ ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه؛ فهذا فصل النزاع في تضعيف السيئات، والله أعلم".

وقد وضح الزركشي ثمرة الخلاف في قوله: "فإن قيل: فيرجع النزاع أيضا، وأي فرق بين أن تكون السيئة المعظمة بمائة ألف سيئة وهي واحدة، وبين أن تكون بمائة ألف سيئة عددا؟ فالجواب: أنه قد جاء أن من زادت حسناته على سيئاته في العدد دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته في العدد دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته عددا كان من أهل الأعراف؛ فلا يبعد أن يكون في الغلظ من غير تعدد معنى من عدم الزيادة العددية المرجحة بسبب فضل السيئات في الحرم في الحالة التي لولاها هذا التأويل لرجح جانب السيئة، أو معنى غيره يحصل به".

المسألة الثانية: ما جاء من الوعيد بمضاعفة العذاب على زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وهو قوله جل وعلا: **{يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبيئنة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا}** [الأحزاب: 30]، وقد استنبط بعض العلماء من الآية أن "تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات".

وقريب مما قيل في هذه الآية قيل في قوله جل وعلا: **{ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا}** [الإسراء: 74، 75].

وقد أجاب العلامة الشنقيطي رحمه الله عما يظن من تعارض بين هاتين الآيتين والأصل المتقرر بعدم مضاعفة السيئات بجوابين:

الأول: أن المراد تعظيم الذنب وتغليظه.

الثاني: أن هاتين الآيتين مخصصتان من ذاك العموم.

يقول رحمه الله: "ومضاعفة السيئات المشار إليها في هاتين الآيتين إن كانت بسبب

عظم الذنب حتى صار في عظمه كذنبين، وإن كانت مضاعفة جزاء السيئة كانت هاتان الآيتان مخصصتين للآيات المصرحة بأن السيئة لا تجزى إلا مثلها، والجميع محتمل، والعلم عند الله تعالى".

والأمر كما قال رحمه الله من احتمال هذين الجوابين.

وقد قيل: إنه قد ضوعف العذاب المتوعد به عليهن لما في وقوع الفاحشة منهن – وحاشاهن– من أذى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو جرم عظيم.

والمقصود بهذا القول: أن العقوبة لم تكن على ذنب واحد؛ وإنما هو ذنبان هما: الفاحشة، وأذى النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا خارج عن محل البحث؛ إذ هو في مضاعفة العقاب على الذنب الواحد، وبهذا أجاب الحافظ ابن حجر عن هذا الاستشكال حيث قال: "ولا يرد على ذلك [أي كون السيئة لا تضاعف] قوله تعالى: **{من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين}** [الأحزاب: 30] لأن ذلك ورد تعظيما لحق النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن وقوع ذلك من نسائه يقتضي أمرا زائدا على الفاحشة؛ وهو أذى النبي صلى الله عليه وسلم".

وعلى هذا التوجيه لم تكن المضاعفة من خصوصيات أمهات المؤمنين، لأنه يمكن أن يقال نظير هذا التوجيه في غيرهن؛ فمثلا: إذا زنت امرأة متزوجة تكون قد وقعت في جريمتين: الوقوع في الفاحشة، وأذية الزوج، وربما يزداد الأمر أكثر؛ كأن تكون قد حملت سفاحا ونسبت الولد لغير أبيه، وهكذا.

وقد قيل: إن مضاعفة العذاب على من كان جليل القدر لكونه يتسبب بارتكاب السيئة في ارتكاب غيره لها، وأن يحتج به في ذلك؛ فكأنه سن ذلك؛ فيتحمل وزره ووزر من تبعه على ذلك ، والله تعالى أعلم.

الدرس الحادي عشر: جزاء الحسنات والسيئات في الآخرة

العنصر الأول: جزاء المؤمن على الحسنات

العنصر الثاني: جزاء المؤمن على السيئات

العنصر الأول: جزاء المؤمن على الحسنات

من الآثار الحميدة للحسنات أن منها ما يجتنى في الدنيا، ومنها ما يكون في البرزخ، غير أن الجزاء الأوفى والثواب الأكمل إنما يكون في الآخرة؛ فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، ثم يحصد يوم القيامة ما زرع، فمن زرع خيرا من قول أو عمل حصد الكرامة، ومن زرع شرا من قول أو عمل حصد غدا الندامة.

يقول جل وعلا: **{إنما توفون أجوركم يوم القيامة}** [آل عمران: 185].
يقول الشوكاني عند تفسيره هذه الآية: (أجر المؤمن: الثواب، وأجر الكافر: العقاب).

أي أن توفية الأجور وتكميلها إنما تكون في ذلك اليوم، وما يقع من الأجور في الدنيا أو في البرزخ فإنما هو بعض الأجور).

وقبل بيان الجزاء الموعود به على الحسنات يحسن أن يقدم بين يدي ذلك بالإشارة إلى أن باب الجزاء على الحسنات والإثابة على الصالحات منضبط بأصول مستنبطة من النصوص، سنوجز أهمها بما يلي:

أولا: الله تبارك وتعالى لا يظلم العبد شيئا من أعماله، ولا يبخسه شيئا من حسناته؛ بل يثيبه على أعماله الصالحة مهما صغرت، مع استغنائه عن العامل، وعدم انتفاعه بعمله.

قال تعالى: **{إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما}** [النساء: 40].

ويقول سبحانه: **{ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا}** [النساء: 124].

ويقول عليه الصلاة والسلام (إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة؛ يعطي بها في الدنيا، ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها).

ثانيا: الثواب محض فضل الله عز وجل، وإن كان العمل سببا له.

وهذا الفضل واجب وقوعه بمقتضى وعده الصادق، جل وعلا، وبإجابه على نفسه، تبارك وتعالى.

ثالثا: الله عز وجل يثيب على الحسنات ثوابا عظيما، وأجرا مضاعفا، والأدلة على هذا الأصل كثيرة، قال تعالى: **{من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها}** [الأنعام: 160]، وقال سبحانه: **{فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون}** [سبأ: 37]، وقال سبحانه: **{ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله}** [النور: 38]، وقال جل وعلا: **{ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب}** [غافر: 40]، وقال سبحانه: **{وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا}** [المزمل: 20].

رابعا: الله عز وجل يثيب على العمل المشروع وعلى ما تولد عنه، أو كان مسببا عنه.

ولا ريب أن باب التسبب في الأعمال الصالحة من أبواب الأجر العظيمة التي تفضل بها الرب جل وعلا على عباده، والأدلة على هذا الأصل كثيرة، منها: قوله عليه الصلاة والسلام: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده دون أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده دون أن ينقص من أوزارهم شيء}.

وقوله عليه الصلاة والسلام (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة؛ إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).

خامسا: الثواب إنما يقع على عمل استجمع شروط القبول، ولابد مع ذلك من زوال المانع وهو أمران:

الأول: السبب المحبط للعمل.

الثاني: غلبة السيئات للحسنات في الموازنة؛ فإنه إذا رجحت كفة السيئات أسقطت ما يقابلها من الحسنات، ودخول الجنة بعد ذلك بما بقي من أصل الإيمان على ما مضى بيانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإن رجحت سيئاته على حسناته كان من أهل العذاب، وما أعد له من الثواب يحبط حينئذ بالسيئات التي زادت على حسناته).

وعليه؛ فإذا سلم العبد من محبط له، و لم تغلب سيئاته حسناته، وكان مستجمعا لشروط قبوله؛ نال صاحبه الثواب بفضل الله عز وجل جلاله.

وهذا الثواب والحديث في هذا المقام عن الثواب الأخروي،، هو بحسب وروده في النصوص أصناف كثيرة، ويمكن إرجاعها إلى صنفين في الجملة:

أ- الجنة ونعيمها.

ب- ما عدا ذلك.

وهذا الجزاء الثاني راجع إلى الأول؛ لأنه لا يخلو غالبا من أن يكون مقدمة للأول أو لازما له، أو داخلا في مفهومه.

فما يكون مقدمة لدخول الجنة ولازما له: تجاوز الرب عن عبده وتكفير ذنوبه.

وقد ثبت هذا جزاء على الحسنات في نصوص كثيرة، منها: قوله تعالى: **{ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم}** [سبأ: 4]، وقوله عز وجل: **{ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم}** [التغابن9]، وقوله عليه الصلاة والسلام : (من قال حين يسمع المؤذن: اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا؛ غفر له ذنبه).

ومما هو لازم لدخول الجنة: تحريم العبد على النار والمباعدة بينه وبينها.

وقد ثبت هذا الجزاء في نصوص كثيرة، منها: قوله عليه الصلاة والسلام: (من صام يوما في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفا)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله عز وجل على النار).

وقوله عليه الصلاة والسلام: (من بلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار).

ومنه أيضا: الجزاء الواقع يوم القيامة من نيل الشفاعة، والاستظلال بظل عرش الرحمن ونحو ذلك.

ومما ورد في هذا الشأن: قوله عليه الصلاة والسلام: (من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته؛ حلت له شفاعتي يوم القيامة.

ومنه حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

ومما هو داخل في مفهوم الجزاء بدخول الجنة: الجزاء بالأجر والثواب؛ وهو (مقدار من الجزاء يعلمه تعالى) فهو راجع إلى التنعم بنعيم الجنة.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر).

وإذا تقرر هذا تبين أن جزء الحسنات يتلخص في دخول الجنة والتنعم بنعيمها، والتي هي كما يقول ربنا عز اسمه عنها: **{نعم الثواب وحسنت مرتفقا}** [الكهف: 31].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإن الثواب والعقاب هو ما وعد الله به عباده وأوعدهم به؛ فالثواب هو الجنة بما فيها، والعقاب هو النار بما فيها).

وقد دل على هذا الأدلة الكثيرة التي يصعب حصرها، ومنها: قوله تعالى: **{ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى}** [طه: 75-76].

وقوله سبحانه : **{وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون}** [الزخرف: 72]، وقوله عز وجل: **{والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا}** [النساء: 57]، وقوله تعالى: **{قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا}** [الفرقان: 15].

وإذا كانت الأدلة الكثيرة قد دلت على أن جزاء الصالحات عامة دخول الجنة والتنعم فيها؛ فإن الوعد بهذا الثواب على الحسنات تفصيلا قد ورد أيضا في أدلة لا تحصى.

وهذا الوعد قد جاء على أنواع كثيرة؛ فمنه الوعد بدخول الجنة مطلقا، ومنه وعد بنيل بعض نعيمها؛ وهو يتضمن دخول الجنة، ويستلزم التنعم بسائر ما تحويه الجنان التي يصير إليها العامل من أصناف النعيم.

ومن أمثلة ما ورد في هذا الأمر:

1- الوعد بدخول الجنة في قوله عليه الصلاة والسلام: (من صلى البردين دخل الجنة).

2- نيل الدرجات الرفيعة في الجنة، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (يا أبا سعيد؛ من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وجبت له الجنة) قال: فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها علي يا رسول الله، ففعل، ثم قال عليه الصلاة والسلام(وأخرى يرفع الله بها للعبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)، قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: (الجهاد في سبيل الله).

3- مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم، كما في قوله عليه الصلاة والسلام لمن سأله مرافقته في الجنة: (فأعني على نفسك بكثيرة السجود).

4- الفوز ببيوت الجنة، كما في قوله عليه الصلاة والسلام، (ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعا غير فريضة؛ إلا بنى الله له بيتا في الجنة).

5- الفوز بغراس الجنة، كما قال عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة وكان يغرس غرسا: (ألا أدلك على غراس خير لك من هذا)، قال: بلى، قال: (قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ يغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة).

6- الفوز بكنوز الجنة، كما قال عليه الصلاة: (يا عبد الله ابن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: (قل: لا حول ولا قوة إلا بالله).

وإذا كان الحديث عن الجنة فإنه يعني الحديث عن نعيم سرمدي، ولذات مستمرة، وخيرات دائمة.

ومن المعلوم أن ما ورد في شرعنا من صفات اليوم الآخر ووصف الجنة، والنار أعظم مما جاء في الشرائع السابقة، وأكمل مما ورد في الكتب الماضية.

وقد تكاثر في الكتاب والسنة بيان أصناف النعيم الذي وعد الله المتقين في الجنة ثوابا على أعمالهم الصالحة؛ من القصور والحور، والمراكب والأرائك، واللباس والخدم، والأكل والشرب.

مع السلامة من الآفات والمؤذيات؛ فلا ظمأ ولا نصب، ولا حزن ولا مرض ، ولا موت ولا هرم؛ **{وقالوا الحمد لله الذين أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب}** [فاطر: 34-35].

والخلاصة: أن أهل الجنة في سعادة خالصة، وفرح تام، ويجمع هذا المعنى قوله تعالى: **{فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين}** [السجدة: 17]. وقوله: **{وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون}** [الزخرف: 71]، قوله: **{فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون}** [الروم: 15]، وقوله عز وجل في الحديث القدسي: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).

غير أن أعظم النعيم وأجله على الإطلاق حلول رضوان الرب جل جلاله على أهل الجنة، وتمتعهم بمخاطبته والنظر إلى وجهة الكريم نسأل الله من فضله، (فإن نعيمهم لم

يطلب إلا برؤية ربهم رضوانه عليهم؛ ولأنه الغاية التي أمها العابدون، والنهاية التي سعى إليها المحبون؛ فرضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات).

قال تعالى: **{وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر}** [التوبة: 72].

قال ابن كثير: (أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم).

وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، يقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب؛ وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقولون: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا).

وقد جاء في الحديث أن أعظم نعيم أهل الجنة النظر إلى الباري جل جلاله؛ وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل).

وجاء في رواية أخرى زيادة: (ثم تلا هذه الآية: **{للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}** [يونس: 26]).

يقول ابن القيم: (أفضل نعيم الآخرة وأجله وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب عز وجل وسماع خطابه).

ويقول شيخه رحمه الله: (ورؤيته سبحانه هي أعلى مراتب نعيم الجنة، وغاية مطلوب الذين عبدوا الله مخلصين له الدين، وإن كانوا في الرؤية على درجات على حسب قربهم من الله ومعرفتهم به).

العنصر الثاني: جزاء المؤمن على السيئات:

مصير العاصي بين عفو الله وعقوبته.

فالله عز وجل قد يعفو عن عبده فلا يجازيه بسيئاته ومن نال ذلك فقد تمت سعادته: **{فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز}** [آل عمران: 185].

وقد دلت الأدلة الكثيرة على أن الله عز وجل قد يتجاوز عن سيئات من أساء، قال تعالى: **{وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات}** [الشورى: 25]، وقال عز وجل: **{أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم}** [الأحقاف: 16]، وقال سبحانه: **{ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}** [النساء: 48].

وأسباب تكفير السيئات كثيرة، منها ما يكون في الدنيا، ومنها ما يكون في البرزخ، ومنها ما يكون في الآخرة، وليس يعارض هذا الأصل قوله تعالى: **{من يعمل سوء يجز به}** [النساء: 123].؛ إذ هي لا تدل على أن كل سيئة لابد أن يعاقب عليها في الآخرة، ويظهر هذا بثلاثة أوجه:

1- أنه قد قيل إن الآية خاصة بالكفار.

2- أن الآية مجملة قد بينتها السنة؛ فإن هذه الآية لما نزلت بلغت من المسلمين مبلغا شديدا، فقال: عليه الصلاة والسلام: (قاربوا وسددوا؛ ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها).

3- أن الآية مخصصة بالنصوص السابقة وبغيرها، كقوله تعالى: **{وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير}** [الشورى: 30]، وبقوله عز وجل في الحديث القدسي: (ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر).

وتأسيسا على هذا الأصل تقررت قاعدة أصل السنة: أنهم لا يوجبون العذاب في حق كل من أتى معصية، ولا يشهدون على أحد من المسلمين تعيينا أنه في النار لأجل سيئة عملها، سوى من عُيِّن في النصوص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد كلام له يتعلق بهذا الموضوع: (وبهذا تبين أنا نشهد بأن **{الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا}** [النساء: 10]، على الإطلاق والعموم، ولا نشهد لمعين أنه في النار؛ لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه؛ لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع، ونحن لا نعلم ثبوت الشرط وانتفاء الموانع في حقه، وفائدة الوعيد بيان أن هذا الذنب سبب مقتض لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه وانتفاء مانعه.

يبين هذا: أنه قد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم: (لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها).

وثبت عنه في (صحيح البخاري) : أن رجلا كان يكثر شرب الخمر فلعنه رجل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تلعنه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله)، فنهى عن لعن هذا المعين وهو مدمن خمر؛ لأنه يحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد لعن شارب الخمر على العموم).

وينبغي أن يلاحظ عند الحديث عن عفو الله جل وعلا عن السيئات أمران:

الأول: أن السيئات المعلقة بالمخلوقين ثبت وقوع القصاص فيها بالحسنات والسيئات.

قال ابن عبد البر: (ومذهبنا في الوعيد أنه غير نافذ في هذا وفي كل ما أوعد الله أهل الإيمان عليه النار والعذاب؛ فإن الله بالخيار ففي عبده المذنب؛ إن شاء أن يغفر له غفر، وإن شاء يعذبه عذبه... إلا أن حقوق الآدميين لابد فيها من القصاص بالحسنات والسيئات).

وقد دل على هذا جملة من النصوص، منها: قوله عليه الصلاة والسلام: (أتدرون من المفلس؟) قالو: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار).

وقوله عليه الصلاة والسلام: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله.

منها؛ فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه).

ومما يدل على هذا أيضا: حديث المقاصة في القنطرة، فقد قال: عليه الصلاة والسلام: (إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار؛ فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة؛ فوالذي نفس محمد بيده؛ لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمسكنه في الدنيا).

قال ابن بطال: (وهذه المقاصة التي في هذا الحديث هي لقوم دون قوم؛ وهم من لا تستغرق مظالمهم جميع حسناتهم؛ لأنه لو استغرقت جميعها لكانوا ممن وجب لهم العذاب، ولما جاز أن يقال فيهم: خلصوا من النار، فمعنى الحديث والله أعلم، على الخصوص لمن يكون عليه تبعات يسيرة، فالمقاصة أصلها في كلام العرب مقاصصة، وهي

مفاعلة، ولا تكون المفاعلة أبدا غلا من اثنين كالمقاتلة والمشاتمة؛ فكأن كل واحد منهم له على أخيه مظلمة وعليه له مظلمة، ولم يكن في شيء منها ما يستحق عليه النار؛ فيتاقصون بالحسنات والسيئات؛ فمن كانت مظلمته أكثر من مظلمة أخيه أخذ من حسناته فيدخلون الجنة ويقطعون فيها المنازل على قدر ما بقي لكل واحد منهم من الحسنات.

ولكن ينبغي أن يقال في ختام هذا الموضع إن من تاب توبة نصوحا من مظالم العباد وعجز عن ردها إلى أصحابها أو تحللهم ليس له أن يقنط من توبة الله عليه، لكن عليه أن يكثر من الحسنات حتى يقوم هذا بهذا.

والله سبحانه لا يعجزه أن يرضي خصومه من لدنه ويعوضهم من عنده وهو أكرم الأكرمين جل وعلا.

الأمر الثاني: أن المجاهرين بالمعاصي على خطر عظيم.

وقد دل على هذا مفهوم الحديث القدسي الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام، (يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقرره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا؛ فأنا أغفرها لك اليوم).

وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان! عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه , يصبح يكشف ستر الله عنه).

وعودا على مسألة العفو؛ فلابد من التذكير بأن العفو عن السيئة في الآخرة لا يعني كونها لم يترتب عليها عقوبة ما؛ فقد تقرر سابقا أن السيئات مضرة ولابد، وأن صاحبها سيناله نصيب من العقوبة إن عاجلا وإن آجلا، وأقل ذلك ما فاته من ثواب المحسنين).

غير أن تأخير الجزاء على السيئة إلى الآخرة علامة خذلان العبد؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة).

وإذا لم يعف الله جل وعز عن عبده وعامله بعدله و لم يتجاوز عن سيئاته؛ وقع الجزاء عليها.

وجزاء العصاة على سيئاتهم في الجملة أمر قطعي لا شك فيه عند أهل السنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الذي عليه عامة المسلمين من جميع الطوائف: عقوبة الفجار أهل القبلة في الجملة؛ إما في الدنيا بالمصائب والحدود، وإما في الآخرة وأما غلاة المرجئة فروي عنها أنها نفت ذلك، كما أن الخوارج والمعتزلة جزمت بوقوع ذلك على جميع الفاسقين وخلودهم في النار).

وقال أيضا: (ونصوص الكتاب والسنة مع اتفاق سلف الأمة وأئمتها متطابقة على أن من أهل الكبائر من يُعذب، وأنه لا يبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان).

وعلى وزان ما ذكر في جزاء الحسنات فإنه يقال: إن الجزاء على السيئات منضبط بأصول مستنبطة من النصوص، أوجز أهمها فيما يأتي:

ا) الله سبحانه عدل في جزائه؛ فلا يظلم العبد إذا عاقبه؛ بأن يعاقبه على غير ما فعل، أو يعاقبه بأكثر مما يستحق؛ فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يجزى على السيئة إلا

بقدرها بعد البيان وقطع العذر، قال تعالى: **{ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون}** (الأنعام: 160)، وقال سبحانه: **{من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها}** [غافر: 40]، في آيات أخرى، وقد سبق توضيح هذا الموضوع.

بل قد يقال : إن الله تعالى إذا جازى عبده فإنه لا يجازيه بجميع ما يستحق.

قال ابن الوزير: (ومن عذب في الآخرة حتى يشفع له فيحتمل أنه ما جوزي بجميع ما يستحق؛ لأنه لو جوزي لكان خالدا، أو معذبا عذابا أطول من ذلك بمدد متطاولة).

ويستأنس في هذا المقام بقول الحسن البصري في قوله تعالى: **{وهل نجازي إلا الكفور}** [سبأ: 17]، (صدق الله العظيم؛ لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور).

وأصرح من هذا وأوضح: الأحاديث المتواترة في ثبوت الشفاعة وإخراج العصاة من النار بسبب الشفاعة وبمحض رحمة أرحم الراحمين سبحانه؛ فهي دليل بين على هذه القضية لمن تأمل.

ب- العقوبة إنما تكون على المعصية وعلى ما تولد منها أو كان مسببا عنها، (فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد عنها).

والأدلة على هذا الأصل كثيرة، منها: قوله تعالى: **{وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم}** [العنكبوت: 13]، قال ابن كثير في تفسير الآية: (إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزارا أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا).

وقال تعالى: {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم} [النحل: 25].

وقال عليه الصلاة والسلام: (من دعا إلى هدى.. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا).

وقال عليه الصلة والسلام: (لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل).

قال ابن حجر: (فيه أن من سن شيئا كتب له أو عليه).

ج- وقوع الجزاء على سيئات لم تغفر متوقف على رجحان السيئات على الحسنات في الموازنة، وعلى عدم الشفاعة قبل دخول النار على ما مضى تفصيله.

وهل يجازى العبد حينئذ على سائر سيئاته؟ أو أن الحسنات تسقط ما يقابلها ويكون الجزاء على ما تبقى؟ سبقت الإشارة إلى نظير هذه المسألة عند بحث الجزاء على الحسنات، وذكرت أنها محتملة ولا قاطع فيها، والله أعلم بحقيقة الحال، وفضله واسع جل وعلا.

وبتأمل جملة من أدلة الكتاب والسنة ظهر لي أن جزاء السيئات بحسب وروده فيها كان في الجملة على ثلاثة أصناف.

أولا: الجزاء عليها بالنار وعذابها:

وهذا هو الأصل في هذا الباب: قال تعالى: {قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم} [الزمر: 13].

والذي انعقد عليه إجماع السلف أن دخول عصاة المؤمنين النار دخول مؤقت؛ إذ لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وإن كانوا متفاوتين في مقدار العذاب وطول المكث بحسب جرمهم، ثم يأذن تبارك وتعالى بخروجهم من النار، بعد أن يكونوا قد ماتوا فيها بشفاعة الشافعين من الأنبياء والملائكة والصالحين، أو بمحض عفو أرحم الراحمين تبارك وتعالى.

يقول الإمام أبو عثمان الصابوني: (ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوبا كثيرة، صغائر وكبائر؛ فإنه لا يكفر بها وإن خرج عن الدنيا غير تائب منها ومات على التوحيد والإخلاص فإن أمره إلى الله عز وجل؛ إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالما غانما غير مبتلى بالنار... وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها؛ بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار).

والأدلة على هذا كثيرة جدا ، وأقتصر منها على دليل صريح جامع وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، أو قال: بخطاياهم، فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما أُذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم؛ فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل).

وإذا علم أن عذاب الموحدين في النار عذاب مؤقت؛ فلا يتوهم خفة الأمر؛ فإن من تأمل النصوص الشرعية أيقن أن عذاب النار عذابٌ عظيم.

وكيف لا يكون الأمر كذلك والله عز وجل قد عظم أمر النار، وكثر في الكتاب والسنة التحذير من عذابها.

يقول جل وعلا { **يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**} [التحريم: 6]، ويقول سبحانه: {**لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون**} [الزمر: 16]، ويقول تعالى: {**واتقوا النار التي أعدت للكافرين**} [آل عمران: 131]، ويقول جل وعلا {**إنها لإحدى الكبر، نذيرا للبشر**} [المدثر: 3536]، ويقول الحسن البصري رحمه الله: (لا نذير أدهى من النار).

وخطب النبي صلى الله عليه وسلم: أصحابه فقال: (أنذرتكم النار، أنذرتكم النار).

وإذا كانت أدنى غمسة فيها عياذا بالله، تنسي أنعم أهل الدنيا نعيمه بالكلية فكيف يتوهم التهوين من شأنها؟ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم؛ هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة يصبغ صبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم؛ هل رأيت بؤسا قط، هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط).

ويكفي للتصديق بذلك إخباره عليه الصلاة والسلام بحال أهون أهل النار عذابا؛ حيث قال: (إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا، وإنه لأهونهم عذابا).

فإذا كانت هذه حال أهون المعذبين؛ فكيف بمن فوقه؟

والأدلة التي ورد فيها الوعيد بالنار جزاء على فعل السيئات من الكثرة بحيث يتعذر حصرها، وقد يكون الوعيد فيها بالنار مطلقا، أو ببعض جحيمها أو أصناف النكال فيها.

فمن أمثلة ما ورد من الوعيد بالنار مطلقا قوله تعالى: **{ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار}** [هود: 113]، وقال: **{إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا}** [النساء: 10]، وقال: **{يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما, ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا}** [النساء: 29-30].

وقال عليه الصلاة والسلام: (إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار).

وقال عليه الصلاة والسلام: (إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة).

ومما ورد من الوعيد ببعض جحيمها:

1- السقي من عصارة أهل النار: قال عليه الصلاة والسلام: (إن على الله عهدا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال)، قالوا: يا رسول الله؛ وما طينة الخبال؟ قال: (عرق أهل النار، أو قال: عصارة أهل النار).

2- الإلجام بلجام من نار: قال عليه الصلاة والسلام: (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة).

3- التعذيب بصفائح من نار: قال عليه الصلاة والسلام: (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها؛ إلا إذا كان يوم القيامة صحفت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره).

4- أنواع أخرى من الجزاء: كمثل ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: (من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعرتين ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صب في أذنه الآنك يوم القيامة، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ).

ثانيا: الجزاء بما هو من لوازم دخول النار أو مقدماته، أو بوقوع عقوبة في موقف القيامة:

ومن أمثلة ما ورد في هذا الباب:

1- الجزاء على السيئات باللعنة، وهي: (الطرد والإبعاد على سبيل السخط).

2- وهذا كثير في النصوص، كقوله تعالى: **{إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم}** [النور: 23 ، وقوله عليه الصلاة والسلام (لعن رسول الله آكل الربا وموكله)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال).

2- الجزاء عليها بغضب الرب سبحانه، أو أن يكون عز وجل خصم العاصي.

ومما ورد في هذا الشأن: قوله تعالى: **{ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير}** [الأنفال: 16].

قال ابن الوزير: (وهذا أشد وعيد علمته للمؤمنين).

ومنه قوله تعالى: **{ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما}** [النساء: 93].

وقوله: عليه الصلاة والسلام: (من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان).

وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه و لم يعطه أجره).

3- الجزاء عليها بعدم دخول الجنة، أو تحريمها على العاصي.

ومما ورد في هذا : قوله عليه الصلاة والسلام: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)، وقوله عليه الصلاة والسلام (لا يدخل الجنة قاطع).

والمراد بنفي الدخول في هذي الحديثين وأمثالهما: نفي الدخول المطلق؛ وهو الدخول ابتداء من غير سبق عذاب في النار.

ثم إن هذا وعيد قد يقع، وقد يعفو الله لمانع من موانع إنفاذ الوعيد، كما تقدم.

بمعنى: أن هذا وعيد؛ والقاعدة المتقررة عند أهل السنة أن كل وعيد للعصاة فهو مقيد بقوله تعالى: **{ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}** [النساء: 116]، وأمثالها ، قال ابن خزيمة: كل وعيد في الكتاب والسنة لأهل التوحيد فإنما هو على شريطة، أي إلا أن يشاء الله أن يغفر ويصفح ويتكرم ويتفضل فلا يعذب على ارتكاب تلك الخطيئة.

ومثله ما ورد من تحريمه الجنة، كقوله عليه الصلاة والسلام : (من ادعى أبا في الإسلام غير أبيه يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام).

والمراد: أنها محرمة عليه أولا عند دخول أهل السلامة الفائزين، وهو وعيد قد يجازى به، وقد يعفو الله سبحانه، كما تقدم آنفا.

4- حرمان نظر الرب تعالى وكلامه:

وقد ورد هذا في جملة من النصوص، منها: قوله عليه الصلاة والسلام: (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل كان له فضل ماء بالطريق، فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إمامه لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدقه رجل، ثم قرأ هذه الآية: **{إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا}** [آل عمران: 77].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)، قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: (المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب).

ثالثا: حرمان بعض نعيم الجنة:

وهذا الصنف من الجزاء مختلف فيه، ولم أقف عليه إلا في ثلاثة أنواع من السيئات، هي: شرب الخمر، ولبس الحرير ولبس الذهب للرجال.

يقول عليه الصلاة والسلام: (من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة).

ويقول عليه الصلاة وسلام: (من لبس الحرير في الدنيا فلن يلبسه في الآخرة).

ويقول: عليه الصلاة والسلام: (من لبس الذهب من أمتي فمات وهو يلبسه حرم الله عليه ذهب الجنة، ومن لبس الحرير من أمتي فمات وهو يلبسه حرم الله عليه حرير الجنة).

وقد اختلف أهل العلم في معنى هذا الجزاء إلى قولين:

الأول: أن المعنى: لا يدخل الجنة؛ ويكون حرمانه من شربها مدة تعذيبه؛ لأن شراب أهل الجنة الخمر، ومن دخلها لا يحرم شرابها، لأنه إن حرمها مع العلم بها دخل عليه الحزن، والجنة لا حزن فيها، وإن كان ذلك مع عدم العلم بها وعدم تذكرها لم يجد ألم فقدها؛ فلم تكن عقوبة في حقه.

والشأن في الحرير والذهب كذلك.

وإلى هذا مال ابن عبد البر والبغوي.

وعلى هذا؛ فهذا الوعيد يرجع إلى الوعيد بعدم دخول الجنة، وقد سبق الكلام عنه قريبا، وبناء عليه فقد رجع هذا النوع من الجزاء إلى ما قبله، ولم يكن نوعا مستقلا.

القول الثاني: أن المعنى: لا يشربها في الجنة؛ إما بأن ينساها، أو لا يشتهيها، وكذلك الشأن في الحرير والذهب.

وهو ما اختاره النووي، ونسب القول به إلى بعض الصحابة، وعليه فهو نوع من الجزاء آخر، يكون بحرمان من نعيم الجنة على العاصي إذا دخلها.

والذي يبدو والله تعالى أعلم أن القول الثاني هو الأقرب؛ لأنه ظاهر الأحاديث؛ بل جاء مصرحا به في حديث آخر، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (من مات من أمتي وهو

يشرب الخمر حرم الله عليه شربها في الجنة، ومن مات من أمتي وهو يتحلى الذهب حرم الله عليه لبساه في الجنة).

ثم إنه لا محذور فيه؛ فإن حرمان العاصي من الشرب أو اللبس مع النسيان أو عدم الرغبة لم يدخل عليه به الهم والحزن، وإنما تكون عقوبة بنقص النعيم في حقه تمييزا بينه وبين غيره ممن لم يقارف هذه الخطايا.

والشأن في هذا كالشأن في اختلاف درجات أهل الجنة مع عدم دخول الهم على الأدنى.

وفائدة الوعيد تظهر في الدنيا؛ بردع العاصي عن مقاربة شيء من تلك السيئات والله أعلم.

الدرس الثاني عشر: حبوط الأعمال: المفهوم والأقسام والأدلة.

عناصر الدرس

العنصر الأول: معنى حبوط الحسنات.

العنصر الثاني: الأدلة على حبوط الحسنات

العنصر الأول: معنى حبوط الحسنات.

الحبوط والحبط مصدران للفعل حبط يحبط، وهذه المادة تدور على معنى الفساد والبطلان.

والمراد بحبوط الحسنات في الشرع: إبطال ثوابها وذهاب أجرها.

يقول الطبري رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: **{حبطت أعمالهم}** [الأعراف: 147] بطلت وذهبت، وبطولها: ذهاب ثوابها وبطول الأجر عليها والجزاء في دار الدنيا والآخرة).

وليس يخفى أن سبب حبوط الحسنات: ارتكاب السيئات، يقول الكفوي: (الإحباط هو إبطال الحسنات بالسيئات)، وإن كانت السيئات متفاوتة الأثر في الإحباط، على تفصيل سيأتي إن شاء الله تعالى.

ولابد في هذا المقام من تحقيق مسألة؛ وهي: هل رد العمل بسبب فقد شرط قبوله أو غير ذلك داخل في معنى الحبوط، أو أن هذا موضوع آخر؟ والبحث في هذا الأمر له أهميته؛ حتى يتضح ما يدخل تحت حد هذا الفصل.

يرى بعض العلماء أن بين الموضوعين فرقًا؛ فالحبوط إنما يطلق على بطلان عمل قد ثبت وصار في حيز القبول ثم فسد بعد ذلك، وأما رد العمل بسبب فقد شرط القبول مثلا فيمتنع الصحة والثواب ابتداء، وفي هذا يقول ابن عطية في تعريف الحبوط: (الفساد في العمل بعد تقرره).

ويقول أيضا: (وحبط العمل: إذا بطل بعد أن كان حاصلا).

وأشار إلى هذا المعنى ابن القيم في مواضع، ومنها قوله: (المعلوم من قاعدة الشرع أن إبطال ما وقع من الأعمال إنما يكون بأسباب [نصبها] الله تعالى مبطلات لتلك الأعمال)، ثم ضرب أمثلة لها ثم قال: (قد يقترن بالعمل أمور تمنع صحته وترتب أثره عليه كالرياء والسمعة وغيرهما، وليس هذا إبطالا لما صح وإنما هو مانع من الصحة).

وأشار إلى هذا المعنى أيضا ابن العربي والألوسي.

وهذا الرأي له حظ من النظر، لاسيما وفي كلام اللغويين ما يشهد له؛ فقد نقل الأزهري في كتابه: (وإذا عمل الرجل عملا ثم أفسده قيل: حبط عمله وأحبطه صاحبه).

ومع هذا؛ فإن نظم الموضوعين في سلك واحد ليس بذاك البعيد؛ وذلك أن استعمال الحبوط في بطلان العمل ابتداء قد جاء أيضا في النصوص، من ذلك قوله تعالى: **{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون}** [هود: 15-16].

فقد ذهب طائفة من العلماء كمعاوية رضي الله عنه ومجاهد، وروي عن ابن عباس وابن جبير، أنها في أهل القبلة وإرادة الدنيا بالعمل ناقضة لشرط الإخلاص وهذا يمنع القبول ابتداء ومع ذلك أطلق لفظ الحبوط.

ويمكن أن يدخل في هذا السياق ما جاء في وصف أعمال الكفار الأصليين بالحبوط كقوله سبحانه في أعمال المنافقين: **{حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين}** [المائدة: 53].

هذا وقد استعمل طائفة من العلماء وصف الحبوط في حق الأعمال الفاسدة بسبب الرياء، بل إن ابن القيم وهو الذي نقل عنه ما سبق يقول: (فالرياء وإن دق محبط للعمل).

يُضاف إلى ما سبق: أن مآل الأمرين من حيث بطلان العمل واحد؛ وعليه فالحاصل ما هو إلا اختلاف في العبارة، وفي هذا يقول ابن عطية: (حبطت معناه: سقطت وفسدت، وأصل الحبط فيما تقدم صلاحه لكنه قد يستعمل في الذي كان في أول أمره فاسدًا، إذ مآل العاملين واحد).

وهذا التوسع في مفهوم الحبوط ينتج عنه التوسع في بحث أثر السيئات في حبوط الحسنات في هذا الفصل، إذ المقصود فيه توضيح أسباب فساد الثواب وبطلانه عموما، ما تقرر منه وما لم يتقرر؛ حتى تُعلم فتُحذر.

ولعل هذا أكمل فائدة وأتم نفعا، والله المستعان.

العنصر الثاني: الأدلة على حبوط الحسنات:

قضية حبوط الحسنات بالسيئات قضية قطعية في الشرع من حيث الجملة وإن كان قد وقع في بعض تفاصيلها خلاف:

وقد تكاثرت الأدلة عليها من الكتاب والسنة.

والمطالب الآتية مشتملة على جملة وافرة منها؛ فلا حاجة إذن إلى تكرار سردها هنا، لكن يحسن أن يشار إلى أهم أنواع الأدلة الواردة في هذا الموضوع وأبرزها، وتتلخص في أربعة أنواع:

أ- الأدلة الواردة بلفظ الحبوط؛ كقوله تعالى: **{ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون}** [الأنعام: 88].

ب- الأدلة الواردة بلفظ البطلان؛ كقوله تعالى: **{يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى}** [البقرة: 264].

ج- الأدلة الواردة بلفظ عدم القبول – على تفصيل فيها، سيأتي إن شاء الله؛ كقوله: عليه الصلاة والسلام: (إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة).

د- الأدلة الواردة بلفظ الرد؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد).

الدرس الثالث عشر: آثار الحسنات والسيئات

عناصر الدرس

تمهيد

العنصر الأول: آثار الحسنات

العنصر الثاني: آثار السيئات

تمهيد

إن من العلم المقطوع به أن **الجزاء الأوفى** على الحسنات والسيئات إنما **يكون في الآخرة**، دار الجزاء، قال تعالى: **{وإنما توفون أجوركم يوم القيامة}** [أل عمران: 158]، وقال: **{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأولى}** [النجم: 39-41]، وقال تعالى: **{واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}** [البقرة: 281].

ولا يفهم من هذا أن الجزاء مقصور على ما يكون في الآخرة، فإن منه ما هو واقع قبل ذلك أيضا.

قال تعالى: **{إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم}** [الانفطار: 13-14]، قال ابن القيم: (هذا في دورهم الثلاث، ليس مختصا بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكماله وظهوره إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك. وفي هذه الدار دون ما في البرزخ).

وهذا واضح جلي في آيات كثيرة، كقوله تعالى: **{والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون}** [النحل: 41].

وقوله: **{نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون}** [يوسف: 56-57]، وقوله: **{للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين}** [النحل: 30].

لقد تضافرت النصوص الشرعية وشواهد الواقع على أن للحسنات والسيئات آثارا لا تنكر، وثمرات ظاهرة لا تجحد؛ فإن حصول الخيرات الظاهرة والباطنة، برحمة الله سبحانه، من آثار الأعمال الصالحة، والضد بالضد.

قال ابن القيم: (لقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجنساها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالية لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط والمعلول على العلة، والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع).

وهذه الآثار تنال الفرد والجماعة ويدركها الإنسان في نفسه ومن حوله. قال ابن القيم: (وقد جعل الله سبحانه للحسنات وللطاعات آثارا محبوبة لذيذة طيبة، وجعل للسيئات والمعاصي آلاما وآثارا مكروهة، وحزازات تُربى على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة.

قال ابن عباس: (إن للحسنة نورا في القلب وضياء في الوجه وقوة في البدن وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادا في الوجه وظلمة في القلب ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق)، وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال أمر مشهود في العالم، ولا ينكره ذو عقل سليم.

أن لله تعالى الحكمة البالغة في جعل الآثار المترتبة على الطاعات والمعاصي **ينال صاحبها قسطا منها في الدنيا قبل الآخرة.**

ومن تلكم الحكم التي يمكن تلمُّسها: أن في ذلك **تخويفا للعاصي وإنذارا له؛** لعله يستعتب ويرعوي، قال تعالى: **{ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}** [الروم: 41]، قال السعدي: (أي ليعلموا أنه المجازى على الأعمال؛ فجعل لهم نموذجا من جزاء أعمالهم في الدنيا **{لعلهم يرجعون}** [السجدة: 21]، عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت؛ فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم، فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته).

ومنها: **تثبيت قلب المؤمن الطائع**، وزيادة محبته لمعبوده، سبحانه لما يرى من دلائل رحمته، وشواهد إنعامه، وتقوية إيمانه بما جاءت به الرسل من شأن المعاد والثواب والعقاب.

قال ابن القيم: (وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره وتأمله ومطالعته مما يقوي إيمانه بما جاءت به الرسل، وبالثواب والعقاب، فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة).

وقال أيضا: (فانظر إلى الآخرة كأنها رأي عين، وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين تعلم حينئذ علما يقينا لا شك فيه أن الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وأنموذجها، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح وضدهما، وبالله التوفيق).

هذه المشاهدة إنما ينالها الموفقون السعداء، (وليس هذا لكل أحد؛ بل أكثر الناس ترين الذنوب على قلبه فلا يشاهد شيئا من ذلك ولا يشعر به ألبتة)، عياذا بالله من طمس البصيرة.

العنصر الأول: **آثار الحسنات.**

إن افتقار النفس لخالقها ومعبودها افتقار ذاتي؛ فهي أشد من أن تكون في حاجة إليه من حيث هو معبودها، ومنتهى مرادها وبغيتها، ومن حيث هو ربها وخالقها ومدبر أمرها.

وإذا كان هذا حقيقة حالها، فإنها لن تسكن إلى شيء أو تطمئن إليه ألبتة حتى تظفر بما خلقت وهيئت له؛ فلا نجاة لها ولا سعادة ولا كمال إلا بأن يكون معبودها ومحبوبها وحده دون سواه، فجماع سعادة العبد وأصلها: الإيمان والطاعة.

قال شيخ الإسلام: (النفس لها قوتان: علمية وعملية؛ فلا تصلح إلا بصلاح الأمرين: وهو أن تعرف الله وتعبده).

قال ابن رجب: (ما أمر الله به عباده فهو من عين صلاحهم وفلاحهم في دنياهم وآخرتهم؛ فإن نفس الإيمان بالله ومعرفته وتوحيده وعبادته ومحبته وإجلاله وخشيته وذكره وشكره هو غذاء القلوب وقوتها وصلاحها وقوامها؛ فلا صلاح للنفوس ولا قرة للعيون ولا طمأنينة ولا نعيم للأرواح ولا لذة لها في الدنيا على الحقيقة إلا بذلك، فحاجتها إلى ذلك أعظم من حاجة الأبدان إلى الطعام والشراب والنفس بكثير؛ فإن حقيقة العبد وخاصيته هي قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بتألهه لإلهه الحق الذي لا إله إلا هو، ومتى فقد ذلك هلك وفسد ولم يصلحه بعد ذلك شيء ألبتة).

وقال ابن القيم: (ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه عليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضي بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن

يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكر وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدا).

إذا تقرر هذا؛ فإن آثار الحسنات وثمراتها في هذه الحياة ترجع في جملتها إلى شيء واحد، وهو: **حصول الحياة الطيبة**.

وقد وعد سبحانه عباده المؤمنين القائمين بالصالحات بذلك حيث قال: **(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة}** [النحل: 97]، وقال: **{للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين}** [النحل: 30]، وقال عن عباده الصالحين: **{فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة}** [آل عمران: 148].

قال ابن القيم: (فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة وبالحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، وهم أحياء في الدارين. ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذاته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

وقال ابن رجب: (فما في الطاعات من اللذة والسرور والابتهاج والطمأنينة وقرة العين أمر ثابت بالنصوص المستفيضة، وهو مشهور محسوس، يدركه بالذوق والوجد من حصل له، ولا يمكن التعبير بالكلام عن حقيقته، والآثار عن السلف والمشائخ العارفين في هذا الباب كثيرة موجودة، حتى كان بعض السلف يقول: (لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف).

إن الحسنات تثمر للعبد قوة القلب ونعيمه، وانشراح الصدر وأمنه، وسلامته من الهم، وزيادة العقل والفهم، ونور الوجه وحلاوته.

وتثمر عزة النفس ورفعتها وعلو همتها.

وتثمر صلاح المعاش وتيسير الرزق وزوال كل عسير.

وتثمر محبة الخلق وجواز القول بينهم، وحفظ الجاه والهيبة عندهم، والدعاء، والثناء الحسن.

هذا مما يرجع إلى ذاته وحياته وأمور معاشه.

وأما ما يرجع إلى دينه وإيمانه: فإن الحسنات تثمر ذوق طعم الإيمان وحلاوة الطاعة.

وتثمر دعاء حملة العشر وقرب الملائكة، وبعد شياطين الإنس والجن منه.

ومن أعظم ما تثمره: تيسير العلم وتسهيل الطاعة؛ فإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، والطاعة تدعو إلى أختها، وأعمال البر تهدي إلى أمثالها.

قال تعالى: **{والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم}** [محمد: 17]، وقال: **{ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا، وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما، ولهديناهم صراطا مستقيما}** [النساء: 66-68].

وبالجملة؛ فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وإذا كانت هذه بعض ثمار الحسنات على الفرد، فإن المجتمع سيناله بالضرورة من تلك الثمار الطيبة نصيب وافر؛ والله عز وجل يقول: **{ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض}** [الأعراف: 96]، ويقول: **{فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات**

ويجعل لكم أنهارا} [نوح: 10-12]، ويقول: **{وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله}** [هود: 3].

قال ابن القيم: (فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته).

هذه بعض ثمرات الحسنات، وما سيأتي في المطلب الثاني يزيد الموضوع وضوحا، والضد يظهر حسنه الضد.

العنصر الثاني: آثار السيئات

إن السيئات التي يقترفها الناس آناء الليل وأطراف النهار لها آثار مدمرة على الفرد والمجتمع والحياة كلها، وذلك أنّ قوام الحياة وصلاحها إنما هو في الطاعة والاستقامة على أمر الله والتقيد بشرعه الحنيف، وكلّ انحراف عن أمره، وكل اتباع لنزغات الشيطان، وكل تفلُّت من دينه إنما هو ركض وراء السراب، وضرب في تيه الشقاء، ولا بد أن يلمس الإنسان آثارها النكرة في نفسه وحياته ثم في أخراه يوم لقاء ربه .

فهذه بعض تلك الثمار المرة التي يجنيها العصاة الآثمون من وراء السيئات:

1-نسيان العلم وذهاب الحفظ، ويا لها من عقوبة ما أقساها على أهل العلم وطلبته، وذلك أن العلم نور يقذفه الله في القلوب العامرة بطاعته المنيبة إليه سبحانه، والمعصية ظلمة قد علاها قُتار الشهوات الهوجاء، وأنّى للنور أن يأنس بالظلام؟!

ولذلك روي أن الإمام الشافعي رحمه الله لما جلس بين يدي إمام دار الهجرة الإمام مالك رحمه الله ورأى عليه مخايل النجابة والذكاء بادية، وأعجبه وفورُ عقله وكمال حفظه قال له ناصحا:

إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية.

والشافعي رحمه الله هو القائل في الأبيات التي سارت بين طلبة العلم مسير الشمس:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نورٌ ونور الله لا يهدى لعاصي

وقد يتساءل إنسان فيقول: إن فلاناً من الناس قد أُعطيَ حفظا واستحضاراً على فجوره الذي عُرف به في الناس فكيف ذلك؟!

فنقول: اقرأ كتابَ الله تعالى تجد الجواب واضحاً، يقول الله عز وجل :**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى ءاتَيْنَاهُ ءايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَاكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث** [الأعراف:175، 176].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله معلقاً: "ففي الآية دليل على أنه ليس كل من آتاه الله العلم فقد رفعه به، إنما الرفعة بالعلم درجة فوق مجرد إتيانه ."

كم من فاجر كان حظه من العلم قيل وقالوا، ليكون ذلك حجةً عليه عند الله، دون حقيقة العلم التي تورث الخشية والإنابة.

2-ومن أعظم آثار المعاصي وأخطرها على العبد الوحشةُ التي تحدثها المعاصي بين العبد وربه، واستثقال الطاعات، واستمراء الفواحش، واعتيادٍ لها، ويا لها من سكرة ما أشد عماها على القلب إن لم يُمدّ صاحبها بنفحة من نفحات الرحمة والهداية، فإنه واقع في حُفرة من حفر الشقاء والعذاب الواصِب لا محالة.

إن حياة المرء الحقيقية إنما هي حياة الطاعة، وشعور العبد أنه خلع عنه ربقة العبودية للخلق، وآوى إلى ظلال العبودية الحقة التي ترفعه عن الطين وجواذبه، ليحط رحال القلب في ساحات العبودية لله رب العالمين .ولهذا جعل الله الكافر ميتاً غير حي فقال: **أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء** [النحل:21]، وتأملوا بالمقابل في قول بعض الصالحين المخبتين الذين وجدوا برد الطاعة والإنابة إذ يقول: "إنه لتمرّ بالقلب لحظات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي خير عظيم". إنّ في الدنيا جنة لا يدخل جنة الآخرة من لم يدخلها، إنها جنة الطاعة والعبودية التي يُحرم منها العصاة الفجرة.

3-من آثار السيئات النكرة الحيرة والشقاء وتمزّق القلب في شعاب الدنيا، واللهث وراء السراب، واتباع الشياطين المتربصة على أفواه السبل المنحرفة عن السبيل الحق.

4-ألا وإن من أعظم السيئات بعد الشرك بالله تعالى، عقوق الوالدين الذين يجب برهما، وقطع صلة الرحم التي يجب أن توصل، فقد أخرج الشيخان من حديث الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ ، وَمَنَعَ وَهَاتِ ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ " [متفق عليه واللفظ للبخاري]

وعن أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَكَانَ

مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ : أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ " [متفق عليه]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عمر رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ، وَالدَّيُّوثُ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى " [أخرجه النسائي واللفظ له، وأحمد

وعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال: {لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ} (متفق عليه واللفظ لمسلم)

وبما أن العقوق والقطيعة من كبائر الذنوب، فلقد رتب الشارع الكريم على من فعل ذلك، العذاب والنكال في دور الحياة الثلاثة، في الدنيا والقبر والآخرة، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ] " أخرجه أبو داود، وابن ماجة، وأحمد، والترمذي، وقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

5-ومنها حرمان الرزق وفي المسند إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصي

6- ومنها وحشية يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذة أصلا ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة وما لجرح بميت إيلام فلو لم ترك الذنوب إلا حذرا من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حريًا بتركها وقال بعض السلف إني لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابتي وامرأتي ومنها تعسير أموره عليه فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقا دونه أو متعسرا عليه وهذا كما

إن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسرا ويالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى ومنها ظلمته يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره فان الطاعة نور والمعصية ظلمة وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر كأعمى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادا في الوجه حتى يراه كل أحد قال عبد الله بن عباس : إن للحسنة ضياء في الوجه ونورا في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة سوادا في الوجه وظلمة في القبر والقلب ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق

7-ومنها أن المعاصي تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف أن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها أعملني أيضا فإذا عملها قالت الثانية كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح وتزايدت الحسنات وكذلك كانت السيئات أيضا حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة.

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تأزه إليها أزا وتحرضه عليها وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله إليه الشياطين فتأزه إليها أزا فالأول قوي جند الطاعة بالمدد فكانوا أكثر من أعوانه وهذا قوي جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه

8-ومنها وهو من أخوفها على العبد أنها لضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لما تاب إلى الله فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشيء كثير وقلبه معقود بالمعصية مصر عليها عازم على مواقعتها متي أمكنه وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك

9-ومنها أنه ينسلخ من القلب استقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها فيقول يا فلان عملت كذا وكذا وهذا الضرب من الناس لا يعافون وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من الإجهار أن يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول يا فلان عملت يوم كذا وكذا وكذا فتهتك نفسه وقد بات يستره ربه .

10- ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصري هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى ومن يهن الله فماله من مكرم وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفا من شرهم فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه ومنها أن العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك فان الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال إن المؤمن يري ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار

11-ومنها أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال أبو هريرة إن الحباري لتموت في وكرها من ظلم الظالم وقال مجاهد:

إن الهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن ادم وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بني آدم فلا يكفيه عقاب ذنبه حتي يبوء بلعنه من لا ذنب له .

12- ومنها أن المعصية تورث الذل ولا بد فان العز كل العزفى طاعة الله تعالى قال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعا أي فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا في طاعته وكان من دعاء بعض السلف اللهم أعزاني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك قال الحسن البصري إنهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل المعصية لا تفارق قلوبهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه .وقال عبد الله بن المبارك: رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سؤ ورهبانها.

13-ومنها إن المعاصي تفسد العقل فان للعقل نورا والمعصية تطفيء نور العقل ولابد وإذا طفئ نوره ضعف ونقص وقال بعض السلف ما عصي الله أحد حتي يغيب عقله وهذا ظاهر فانه لو حضر عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى أو نجهر به هو مطلع عليه وفي داره على بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه وواعظ القرآن نهاه وواعظ الإيمان ينهاه وواعظ الموت ينهاه وواعظ النار ينهاه والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم

14-ومنها أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين كما قال بعض السلف في قوله تعالى كلا بل ران! على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال هو الذنب بعد الذنب وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب.

15-ومنها أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول صلى الله عليه وسلم فانه لعن على معاصى والتي غيرها اكبر منها فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة والواشرة والمستوشرة ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده ولعن المحلل والمحلل له ولعن السارق ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه ولعن من غير منار الأرض وهي إعلامها وحددوها ولعن من والديه ولعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا يرميه بسهم ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ولعن من ذبح بغير الله ولعن من أحدث حدثا أو آوي محدثا ولعن المصورين ولعن من عمل عمل قوم لوط ولعن من سب أباه وأمه ولعن من كمه أعمي عن السلام ولعن من أتى بهيمة ولعن من رسم دابة في وجهها ولعن من ضار بمسلم أو مكر به ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده ولعن من أتى امرأة في دبرها وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ولعن من انتسب إلى غير أبيه وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ولعن من سب الصحابة وقد لعن الله من أفسد في الأرض وقطع رحمه وأذاه وأذى رسوله ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة ولعن من جعل سبيل الكافر أهدي من سبيل المسلم ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبس المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل ولعن الراشي والمرتشي والرائش وهو الواسطة في الرشوة ولعن على أشياء أخر غير هذه فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بان يكون ممن يعلنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

16 - ومنها حرمان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوة الملائكة فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال **تعالى الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً**

وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها

17- ومن عقوبات المعاصي ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال كان النبي صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه الشياطين رأى أحد منكم البارحة رؤيا فيقص عليه ما شاء الله أن يقص وأنه قال لنا ذات غداة أنه أتاني الليلة آتيان وأنهما انبعثا لى و أنهما قالا لي انطلق وإني انطلقت معهما وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر ها هنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى قال قلت لهما سبحان الله ما هذان قالا لي انطلق فانطلقا فأتينا على رجل مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى قال قلت سبحان الله ما هذان فقالا لي انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور وإذا فيه لغط وأصوات قال فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا فقال قلت من هؤلاء قال فقالا لي انطلق انطلق قال فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فإذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيغفر له فاه فيلقمه حجرا فينطلق فيسبح ثم يرجع إليه كما رجع إليه فيغفر له فاه فألقمه حجرا

قال قلت لهما ما هذان قالا لي انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرأى كأكره رأى رجلا مرا وإذا هو عنده تاريخها ويسعى حولها قال قلت لهما ما هذا قال قالا لي انطلق انطلق فانطلقنا على روضة مغيمة فيها من كل نور الربيع وإذا بين ظهراني الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال قلت ما هذا وما هؤلاء قال قالا لي انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا إلى دوحة عظيمة لم أرى دوحة قط أعظم منها ولا أحسن قال قالا لي أرق فيها فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة قال فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن راءٍ وشطر منهم كأقبح راءٍ قال قالا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر قال وإذا نهر معترض يجري كان ماءه المحض في البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم قال قالا لي هذه جنة عدن وهذاك منزلك قال فسمى بصري صعدا فإذا قصر مثل الربابة البيضاء قال قالا لى ها ذاك منزلك قال قلت لهما بارك الله فيكما فذراني فأدخله قالا أما الآن فلا وأنت داخلة قال قلت لهما فإني رأيت منذ الليلة عجبا فما هذا الذي رأيت قال قالا لي أما أنا سنخبرك أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلع رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الربا وأما الرجل الكريه المنظر الذي عند النار يحثها ويسعى حولها فانه مالك خازن جهنم وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة وفي رواية البرقاني ولد على الفطرة فقال بعض المسلمين يا رسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد المشركين وأما القوم الذين

كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم

18-ومن آثار الذنوب والمعاصي إنها تحدث في الارض أنواعا من الفساد في المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد فيحبس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد.

19- وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا فهذا حالنا وإنما إذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة ومن تأثير معاصي الله في الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من أبيارهم حتى أمر أن لا يعلف العجين الذي عجن بمياههم لنواضح الإبل لتأثير شؤم المعصية في الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال وجدت في خزائن بعض بني أمية حنطة الحبة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها كان هذا ينبت في زمن من العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء إنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب

20- وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق فقد روي الترمذي في جامعه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعا ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والخونة والفجرة ويخرج عبدا من عباده من أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فيملأ الأرض قسطا كما ملئت جورا ويقتل المسيح

اليهود والنصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله وتخرج الأرض بركاتها وتعود كما كانت حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس وهذا لان الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر

21- ومن عقوباتها أنها تطفي من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن فان الغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كمال يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديث وأشرف الناس وأعلاهم قدر وهمة أشدهم نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أغير الأمة والله سبحانه أشد غيرة منه كما ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني وفي الصحيح أيضا عنه انه قال صلى الله عليه وسلم في خطبة الكسوف يا جهلتم محمد ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته وفي الصحيح أيضا عنه أنه قال لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه

22- ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير وذهاب كل خير بأجمعه وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال الحياء خير كله وقال ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت وفيه تفسيران أحداهما انه على التهديد والوعيد والمعنى من لم يستح فانه يصنع ما شاء من القبائح إذا لحامل على تركها الحياء فإذا لم يكن هناك حياء نزعه من القبائح فانه يواقعها وهذا تفسير أبي عبيدة والثاني إن الفعل إذا لم تستح فيه من الله فافعله وإنما الذى ينبغي تركه ما يستحي فيه من الله وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هاني فعلى الأول يكون تهديدا كقوله اعملوا ما شئتم وعلى الثاني يكون إذنا وإباحة فان قيل فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين قلت

لاولا على قول من يحمل المشترك على جميع لما بين الإباحة والتهديد من المنافات ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية حتى ربما انه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعله والحامل على ذلك انسلاخه من الحياء وإذا وصل العبد إلى هذه الحالة لم يبق في صلاحه مطمع.

23-ومن عقوباتها أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله وتضعيف وقاره في قلب العبد ولابد شاء أم أبى ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه وربما اغتر المغتر وقالإنمايحملني على المعاصي حسن الرجاء وطمعي في عفوه لا ضعف عظمته في قلبي وهذا من مغالطة النفس فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد وتعظيم حرمانه يحول بينه وبين الذنوب و المتجرؤن على معاصيه ما قدروه حق قدره وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه.

24-ومن عقوباتها أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه و تخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة قال الله يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فأمر بتقواه ونهي أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه واخبر أنه عاقب من ترك التقوى بان أنساه نفسه أي أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره

25-ومن عقوباتها أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه من ثواب المحسنين فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي فان من عبد الله كأنه يراه لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه قلبه المجاشعي يصير كأنه يشاهده وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعاصي فضلا عن مواقعتها فإذا خرج من دائرة الإحسان فاته صحبة رفقته الخاصة وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام فان أراد الله به خيرا أقره في دائرة عموم المؤمنين فان عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن إياكم إياكم والتوبة معروضة بعد

ومن فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الإيمان فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فان الله يدافع عن الذين آمنوا وفاته كل خير رتبه الله في كتابه على الإيمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها فمنها الأجر العظيم وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة إن الله يدافع عن الذين آمنوا ومنها استغفار حملة العرش لهم الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين امنوا ومنها موالاة الله لهم ولا يذل من والاه الله قال الله تعالى الله ولى الذين آمنوا ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم إذ يوحي ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ومنها إن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم ومنها العزة ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ومنها معية الله لأهل الإيمان وإن الله لمع المؤمنين ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ومنها أعطاهم كفلين من رحمته وأعطاهم نورا يمشون به ومغفرة ذنوبهم ومنها الود الذي يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم يحببهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين ومنها أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف فمن آمن وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ومنها أنهم المنعم عليهم

الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة ومنها أن القرآنإنماهو هدى لهم وشفاء قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئا يخرجه من دائرة الإيمان ويحول بينه وبينه ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين فان الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن قلبه فيخرجه عن الإسلام بالكلية ومن هنا أشتد خوف السلف كما قال بعضهم أنتم تخافون الذنوب وأنا أخاف الكفر

26-ومن عقوبتها أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطوا إلى الله خطوة هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب والقلب إنما يسير إلى الله بقوته فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره فان زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه والله المستعان فالذنب أما يميت القلب أو يمرضه مرضا مخوفا أو يضعف قوته ولا بد حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي صلى الله عليه وسلم وهي الهم والحزن والكسل والعجز والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجل

27-ومن عقوبات الذنوب إنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا لسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة وقد قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير وقال تعالى ":ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " فأخبر الله تعالى إنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره وأسباب رضاه بأسباب سخطه فإذا غير غير عليه جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد فأن غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى : "إن الله لا يغير

ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ومالهم من دونه من وال.

28-ومن عقوباتها ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي فلا تراه إلا خائفا مرعوبا فان الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمانا ومن عصاه انقلبت مأمنه مخاوف

29-وإن نظرةً واحدة على واقع الغرب الكافر وما يعيشه من ضياع فكري وتفسّخ أخلاقي، بل ونزول بالإنسان إلى دركات الحيوانية الهابطة تنبئك بالحقيقة، لأن بعض فلاسفتهم المشهورين أطلق مقولته الفاجرة: أنْ لا هدف ولا غاية من وجود الإنسان، فظهرت في أوربا جماعات تسمى بالخنافس تتسافد في الطرقات تسافد الحمر، وتعيش عيشة البهائم البكماء، وصدق الله العظيم إذ يقول :وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى [طه:124] .

30-منها تسليط الأعداء وذهاب القوة ونزع الهيبة من قلوب الأعداء .روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمر أن النبي قال: {بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة من الصغار على من خالف أمري، من تشبه بقوم فهو منهم}

إن صحائف التاريخ خير شاهد على عجيب تأثير المعاصي في الأمم، لقد كانت أمة الإسلام في سالف دهرها أمة موفورة الكرامة، عزيزة الجانب، مرهوبة القوة، عظيمة الشوكة، لكنها أضاعت أمر الله، وأقْصت شريعته من حياتها، وراجت أسواق الشرك في أصقاع كثيرة في العالم الإسلامي ــ وهذه الأمة أمة التوحيد ــ فصار أمرها إلى إدبار وعزها إلى ذل، وجثم على صدرها ليل طويل من الاستعمار الكافر، ولولا أنها الأمة الخاتمة

لأصبحت تاريخاً دابراً تحكيه الأجيال. وليس الذي حل بنا ويحل ظلماً من ربنا، كلا وحاشا، فهو القائل في الحديث القدسي الصحيح: ((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا))، وإنما هي السنن الربانية النافذة التي لا تحابي أحداً، **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** [الرعد:11]، **ذَالِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** [الأنفال:53].

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث ثوبان مرفوعاً: ((يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها))، قلنا: يا رسول الله، أمن قلة منا يومئذٍ؟ قال: ((أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن))، قالوا: وما الوهن؟ قال :(حب الدنيا وكراهة الموت)

اليوم نئن تحت وطأة الذلّ المسلّط علينا، وكثير من المسلمين لا يزالون غافلين عن سبب البلاء الذي بيّنه رسولنا في غير ما حديث صحيح، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله يقول: ((إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، سلط الله عليهم ذلاً لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم)) رواه أبو داود وأحمد.

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إننا كنا قوماً أذلة فأعزنا الله بهذا الدين، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله.

من هنا ــ أيها المؤمنون ــ كانت البداية، ومن هنا يكون البدء، ومن تركِنا لديننا كانت بدايةُ رحلة الذلِّ والضياع في تاريخ أمة الإسلام، ومن الرجوع إلى ديننا وتوبتنا إلى ربنا يكون البدء إذا أردنا العودة إلى العزة القعساء والشرف المفقود. إن كلَّ تائب منّا من معاصيه عليه أن يعلم أنه يكتب بذلك سطراً في سِفْر مجد أمة التوحيد .

31-ومن عقوباتها أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضا معلولا لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض بل الذنوب أمراض القلوب ودائها ولا دواء لها إلا تركها وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطي مناها حتى تصل إلى مولاها ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فتصير نفس دوائها ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها وهواها مرضها وشفاؤها مخالفته

32-من عقوباتها أنها تعمي بصر القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى لما اجتمع به ورأى تلك المخايل إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمه المعصية ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم فكم من مهلك يسقط فيه وهو لا يبصر كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك و معاطب فيا عزة السلامة وياسره العطب ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب إلى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها فإذا كانت عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلأ القبر ظلمة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة وإن الله ينورها بصلاتي عليهم فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد وعلت الظلمة الوجوه علوا ظاهرا يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الجمعة فيالها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها فكيف يقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن إنما هو ساعة من حلم والله المستعان

33-ومن عقوباتها أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره كما أن الطاعة تنمها وتزكيها وتكبرها قال تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله

34-ومن عقوباتها أن العاصي دائما سجين شيطانه وسجين شهواته ومقيد بهواه فهو أسير مسجون مقيد ولا أسير أسوء حالًا من أسير من أسره أعدى عدوله ولا سجن أضيق من سجن الهوى ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد وكيف يخطو خطوة واحدة وإذا تقيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده ومثل القلب الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل استوحشته الآفات.

35-ومن عقوباتها سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه فأسقطه من قلوب عباده وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم حسب ذلك فعاش بينهم أسوء عيش خال الذكر ساقط القدر زري الحال لا حرمة له فلا فرح له ولا سرور فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل غم وهم وحزن ولا سرور معه ولا فرح وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة

36-ومن عقوباتها أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمنقي والمطيع والمنيب و الولي والورع والمصلح والعابد والخائف والأواب والطيب والرضي ونحوها وتكسوه اسم الفاجر والعاصي والمخالف والمسيء والمفسد والخبيث والمسخوط والزاني والسارق والقاتل والكاذب والخائن واللوطي والغادر وقاطع الرحم وأمثالها فهذه أسماء الفسوق و بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان التي توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزي والهوان وتلك أسماء توجب رضاء الرحمان ودخول الجنان وتوجب شرف المسمي بها على سائر أنواع الإنسان فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناه عنها ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل أمر بها ولكن لا مانع لما

أعطي الله ولا معطى لما منع ولا مقرب لمن باعد ولا مبعد لمن قرب ومن يهن الله فماله من مكرم وإن الله يفعل ما يشاء

37-ومن أعظم عقوباتها أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر فأي فلاح وأي رجاء وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غني له عنه طرفة عين ولا بدل له منه ولا عوض له عنه

38-ومن عقوباتها أنها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصي الله وما محت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق قال الله تعالي ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض وقال تعالى وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه وأن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وفي الحديث أن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته وإن الله جعل الروح والفرح في الرضاء واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد أنا الله إذا رضيت باركت وليس لبركتي نص وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ولا حياة لمن أعرض عن الله و اشتغل بغيره بل فحياة البهائم خير من حياته فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده أو الإنابة إليه والطمأنينة بذكره والأنس بقربه ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله

39-ومن عقوباتها أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل فان نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته فأن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سببا وآفة تبطله فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفاتها المانعة منها معصيته فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها

40- ومن عقوباتها أنها تباعد عن العبد وليه وأنصح الخلق له وأنفعهم له ومن سعادته في قربه منه وهو الملك الموكل به وتدنى منه عدوه وأغش الخلق له وأعظمهم ضررا له وهو الشيطان فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية حتى أنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة ، وقال بعض السلف إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان فان ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتتولاه الملائكة فى حياته وعند موته وعند مبعثه قال الله تعالى: **{إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة }** [فصلت:30-31]. وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفعهم وأبرهم له فثبته وعلمه وقوي جنانه وأيده قال تعالى: "إذا يوحي ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا " ويقول الملك عند الموت لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون اليه في الحياة الدنيا وعند الموت وفي القبر عند المسألة فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له وهو وليه في يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفي قبره ومؤنسه في وحشته وصاحبه في خلوته ومحدثه في سره ويحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويعينه عليه ويعده بالخير ويبشره به ويحثه على التصديق بالحق كما جاء في الأثر الذي يروى مرفرعا وموقوفا للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة فلمة الملك أيعاد بالخير وتصديق بالوعد ولمة الشيطان أيعاد بالشر وتكذيب

بالحق وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه وألقى على لسانه القول السديد وإذا أبعد منه وقرب الشيطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش حتي يرى الرجل يتكلم على لسان الملك والرجل يتكلم على لسان الشيطان وفي الحديث إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الملك ويسمع ضدها فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان فالملك يلقى في القلب الحق ويلقيه على اللسان والشيطان يلقي الباطل في القلب ويجريه على اللسان

41- ومن شؤم المعاصي ــ معاشر الإخوة الكرام ــ ظهور الأوجاع الفتاكة وارتفاع البركة من الأقوات والأرزاق، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)) رواه ابن ماجه وهو صحيح. [السلسلة الصحيحة) 106.

معاشر المؤمنين، هذه بعض آثار المعاصي المدمرة، وهذه بعض ثمارها النكدة، فهل من مشمِّر تائب منيب، **قُلْ ياعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** [الزمر:53].